لغز الثعبان الأعمى



محمود سالم

لغز الثعبان الأعمى

تأليف
محمود سالم



لغز الثعبان الأعمى

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٧٧ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

هل هي مغامرة؟

أخذ القطار يُهدِّئ من سرعته تدريجيًّا، ووقف الأصدقاء الخمسة في نوافذه يُلْقون نظرة على المدينة الصغيرة التي ينتهي عندها خط السكة الحديد.

قال «عاطف» مُحدِّثًا أخته «لوزة»: إنها ليست أكثر من قريةٍ كبيرة.

ردَّت لوزة: إننا لن نشتريها على كل حال ... سواء أكانت قريةً كبيرة أم مدينةً صغيرة!

عاطف: أقصد أن ملامح القرية تغلب عليها ... فالبيوت أكثرها من الطين!

ومَرَّ القطار في هذه اللحظة باللافتة الحجرية التي تُوجد في محطات السكك الحديدية، وأخذت «لوزة» تقرأ الاسم «أبو كِساه».

وسمع «عاطف» أخته فقال ضاحكًا: حتى اسمها صعب!

وأطلق القطار صَفَّارته الأخيرة، وصفَّرتِ العجلات على القضبان، واهتزَّت العربات ثم توقفَت، وأسرع الأصدقاء يجمَعون حاجياتهم وينزلون مع العدد القليل الذي كان يغادر القطار في ذلك اليوم الحار من أيام شهر يوليو.

قال «تختخ» وهو يلتفت حوله: من المفروض أن يكون صديقي «سليمان» في انتظارنا.

ولم يكَد «تختخ» ينتهي من جملته حتى ظهر صديقهم «سليمان» يشير لهم بيده وهو مقبل على الرصيف ... وسرعان ما كانوا يُسلِّمون جميعًا عليه.

قال «سليمان»: مرحبًا بكم في الفيوم. لقد وصلتم في الموعد تمامًا، والعربية في الانتظار لتوصيلنا إلى العزبة.

وحمَل الأصدقاء حقائبهم ونزلوا سلالم المحطَّة الصغيرة، حيث كانت في انتظارهم سيارةٌ قديمة من طراز «كاديلاك»، وقدَّم لهم «سليمان» سائقها قائلًا: ميزار!

ثم قدَّم الأصدقاء إلى «ميزار» الذي حيَّاهم في احترام، ووضع حقائبهم في السيارة، ثم سأل «سليمان»: هل هناك شيءٌ سنأخذه من «أبو كِساه»؟

قال «سليمان»: نعم سنأخذ صندوقًا من «الكوكا كولا» فقط ثم ننطلق إلى العزبة. وكَركَر موتور السيارة العتيق، ثم مضت تشُقُّ الطرقات الضيقة المتربة، وقد ارتفع من داخلها حديث الأصدقاء وهم يسألون «سليمان» عشرات الأسئلة وهو يجيب عليها مرحًا ضاحكًا.

وبعد أن أخذوا صندوق «الكوكا كولا»، انطلقَت السيارة مُغادِرةً «أبو كِساه»، وأخذَت طريقها بين حدائق الفاكهة وحقول الذرة، وأخذ «سليمان» يُعلِّق على كل ما يمُرُّون به قائلًا: إن محافظة «الفيوم» تُشتهَر كما تعرفون بزراعة الفاكهة والعنب بالذات. والناس كلها تحب العنب الفيومي لشدة حلاوته ... «وأبو كساه» هي إحدى مراكز المحافظة، وهي أقرب المراكز إلى بحيرة قارون ...

قالت «نوسة» مُعلِّقة: لقد جئنا إلى بحيرة «قارون» قبل الآن ... وكان لنا فيها مغامراتٌ ممتعة.

محب: المغامرة الأولى هي «المهرب الدولي»، والثانية هي «القبر الملكي»!

عاد «سليمان» يقول: والعزبة التي ستقضون فيها الإجازة يملكها جَدِّي، ويعيش فيها حتى الآن، والعزبة كلها مزروعة بأشجار الفاكهة.

تختخ: أظنه يعيش وحيدًا فيها!

سليمان: نعم ... فقد ماتت جدتي، ولم ينجب جدي سوى والدتي، وهي بحكم عملها كطبيبة بعيدةٌ عنه، وتحضر لزيارته في الإجازات.

نوسة: وهل هي هنا الآن؟

سليمان: لا ... لقد حضرتُ وحدي، وستحضُر أمي مع أبي في الشهر القادم؛ فقد سافَرتْ إلى الخارج في مهمةٍ دراسية!

وأخذَت السيارة ترتفع وتنخفض على الأرض غير المستوية، ومضى «سليمان» يُكمِل حديثه: لقد طعن جدي في السن، وتجاوز الثمانين، وللأسف لقد أُصيب بالشلل منذ فترة؛ فهو لا يغادر فراشه مطلقًا!

محب: ومن الذي يهتم بالعزبة؟

سليمان: هناك عم «فرحات» ناظر العزبة، وبعض الفلاحين. أما حديقة المنزل ...

وقبل أن يُكمِل «سليمان» حديثه انحرفَت السيارة بسرعة لتتجاوز إحدى الحُفَر التي في الأرض، وتمايل الأصدقاء داخل السيارة، وكادوا يسقُطون داخلها، ولكنها عادت إلى سيرها المعتاد.

وانقطع حبل الحديث لحظات، ثم قال «سليمان»: لم يبقَ إلا بضعُ دقائق ونصل؛ فالمسافة بين «أبو كساه» والعزبة لا تتجاوز عشرين كيلومترًا.

ومروا في هذه اللحظة بقريةٍ صغيرة فقال «سليمان»: هذه هي «سنهور» البحرية، وبها نقطة الشرطة.

وهنا صاحت «لوزة»: شرطة ... هل هنا ألغاز ومغامرات؟

ضحك «سليمان» قائلًا: ككل مكان في العالم لا بد أن تُوجد جرائم، ولكن طابع الجرائم في الريف يختلف عنه في المدينة طبعًا!

تختخ: أعتقد أن الجرائم هنا خاصة بالزراعة وتوزيع المياه، وسرقة الماشية.

سليمان: تمامًا ... والثأر أيضًا ما زالت له بقايا هنا!

وصمت «سليمان» قليلًا، ثم قال: والخطف أيضًا من الجرائم المنتشرة في الريف ... وانحرفَت السيارة عن الطريق العام إلى طريقٍ فرعي، وأشار «سليمان» بإصبعه إلى الأمام قائلًا: هذه هي عزبة «عفيفي»، وهو اسم جدِّي، وقد وَرِثها عن أبيه الذي كان قد وَرِثها عن أبيه، وهكذا ... فهي عزبةٌ قديمة ذات ماضٍ.

نوسة: وهذا الماضي فيه بالطبع حكايات «وحواديت»؟

سليمان: فعلًا ... بعضها يمكن تصديقه، وأغلبها لا يمكن تصديقه فهو أشبه بالأساطير!

نوسة: لعل جدَّك يعرف الكثير من هذه الحكايات!

سليمان: طبعًا، وقد سمِعتُ أكثرها منه، وبعضُها سمعتُه من الفلاحين كبار السن بها!

لوزة: وما هي أغرب حكايةٍ سمعتها؟

سليمان: لا أذكر بالضبط، ولكن هناك حكاية الثعبان الأعمى!

والتفت الأصدقاء إلى «سليمان»، الذي ابتسم عندما رأى الدهشة التي علت وجوههم وقال: تعبير عجيب ... أليس كذلك؟

كانت «لوزة» كالمعتاد أكثرهم حماسًا فقالت: طبعًا ... ما هي حكاية «الثعبان الأعمى» هذه؟

وقبل أن يُجيب «سليمان» ... توقفَت السيارة أمام باب العزبة الخارجي، وقال «سليمان»: يمكن أن ننزل هنا، وسيدخل «ميزار» بالعربة إلى القصر ويحمل حقائبكم.

وأسرع الأصدقاء بالنزول، ووقف «تختخ» يتأمل العزبة الضخمة ... كانت مزروعة كلها بأشجار الجوافة والبرتقال واليوسفي، وقُرب السور الكبير الواسع كانت كروم العنب

الضخمة تمتد إلى مسافاتٍ شاسعة، وبعد السور كانت زراعات الذرة تمتد إلى ما لا نهاية ... كان كل شيء أخضَر شديد الخُضْرة، كثيفًا ومتقاربًا حتى ليشعر الإنسان بالرهبة وبالغموض.

وبدأ «سليمان» يقودهم لمشاهدة معالم العزبة ... هذه حظائر الخيول، وهذه حظائر الماشية ... وأبراج الحمام ... وخلايا النحل. وبالقرب من القصر كان هناك كوخٌ خشبي قديم يغوص في الأرض وكأنه عجوز لا يستطيع النهوض ... ووقف «سليمان» أمام الكوخ لحظاتٍ مترددًا ثم قال: هذا هو كوخ عم «عبود» الجنايني المسئول عن الحديقة، وهو أقدمُ مَن عَمِل هنا مع جدي، وتربطهما صداقةٌ عميقة، وعم «عبود» رجلٌ غريب الأطوار ... أو أصبح غريب الأطوار منذ بضعة شهور؛ فهو يظهر ويختفي بدون أن يعرف أحد ... ولا أحد يستطيع مناقشته فيما يفعل، فهو يتصرف كأنه يملك العزبة، ومعه حق، فقد عمل هنا منذ أكثر من سبعين عامًا ... منذ كان طفلًا صغيرًا ... وجدي يستأمنه تمامًا ... ويسمح له بأن يفعل ما يشاء!

محب: لعله يستطيع أن يروي لنا بعض الحكايات المثيرة عن العزبة والقصر!

سليمان: للأسف ... إنه لم يعُد يستطيع أن يَرْوي ذكرياته؛ فقد أصبح مخرفًا، كما أنه في الفترة الأخيرة أصبح يعتزل الناس، والسائق «ميزار» هو وحده الذي يدخل الكوخ ويحمل له الطعام؛ فهو قريبه، وعم «عبود» هو الذي رشَّح «ميزار» للعمل عندنا كسائق، بعد أن مات السائق العجوز الذي كان يقود العربة قبله.

وعاوَدوا السير بين الأشجار الكثيفة، ومدَّت «نوسة» يدها وقطفَت عنقود عنبٍ ضخمًا ... كان متدليًا، وقال «سليمان» ضاحكًا: هيا خذوا ما تشاءون من العنب وما تشتهون من ثمار ... إن عزبة جدي تُشتهَر بإنتاجها من الفاكهة الشهية الحلوة.

وسرعان ما كان الأصدقاء يَجْرون هنا وهناك، يقطفون ما شاءوا من ثمارٍ ناضجة، ويلتهمونها في شهيةٍ مفتوحة.

وبعد أن طافوا بأهم معالم العزبة، اتجهوا إلى القصر ... ومرُّوا بالكوخ القديم حيث يقيم عم «عبود» العجوز ... وقال «تختخ»: إنني مهتم جدًّا بمقابلة عم «عبود»؛ فإن الحكايات والحواديت تستهويني!

وقال «سليمان» معلقًا: سيكون من الممتع حقًّا أن يروي لك قصة الثعبان الأعمى ... إنها قصةٌ مثيرة، سوف تستهويكم جميعًا لما فيها من مواقفَ مدهشة، وأحداثٍ غامضة. وبدا الاهتمام على وجوه الأصدقاء الخمسة، وقال «عاطف»: ولكن ما هو الثعبان الأعمى؟

بدا على «سليمان» نوعٌ من الاضطراب الخفيف، وقال: يقولون إنه ثعبانٌ ضخم طوله نحو ثلاثة أمتار، أعمى، ولكنه يرى في حالةٍ واحدة.

نوسة: ما هي؟

سليمان: إذا وجد الجوهرة المفقودة التي كان يحرسُها، ويقولون إن هذه الجوهرة موجودة في القصر!

إنذار

صَعِد الأصدقاء سلالم القصر القديم الرخامية ... وكلٌّ منهم يدير في رأسه هذه المعلومات العجيبة التي قالها «سليمان» ... الثعبان الأعمى ... والجوهرة التي في القصر. كانت هذه أول مرة يلتقون فيها بمثل هذه الأساطير الريفية المثيرة ... أكثرُ من هذا أنهم يدخلون القصر الذي تدور حوله الأسطورة ... كما يقول «سليمان» ويزعم أن جوهرة الثعبان الأعمى داخل القصر.

كان «تختخ» يدير هذه الحكاية في رأسه مندهشًا قليلًا، محاولًا أن يجد لها تفسيرًا علميًّا ... وكان «محب» يتحفَّز، وكأنه سيعثُر على الجوهرة ويصارع الثعبان ... كان «عاطف» يحاول أن يجد نكتةً ملائمة يقولها تعليقًا على هذه الأسطورة العجيبة ... وكانت «نوسة» تفكِّر في كتب التراث الشعبي التي قرأَتْها وتُحاول أن تتذكَّر ما إذا كانت قد قرأَتْها قبلًا أو لا ... أما «لوزة» فكانت خائفةً قليلًا ... وقد طار خيالها يرسم صورةً للثعبان الكبير وللجوهرة.

ودخلوا القصر ... كان في مواجهتهم قاعةٌ فسيحة، وبرغم أن الوقت كان الظهيرة والشمس مشرقةٌ في الخارج، فقد كانت الصالة شبه مظلمة ... فالنوافذ مغلقة ... والأعمدة الرخامية الضخمة متقاربة، تُخفِي الأضواء الخفيفة القادمة من خيوط الشمس الرفيعة التي كانت تتخلَّل النوافذ. وعلى يمين الداخل سُلَّمٌ كبير يدور صاعدًا إلى الدور الثاني، والأثاث ضخمٌ قديم، وأبواب الغُرف التي في الطابق الأرضي مغلقة. وظَهرتْ فجأةً سيدةٌ عجوز تَلبَس السواد قدَّمها لهم «سليمان» قائلًا: خالة «رابحة».

وسلَّمتِ العجوز على الأصدقاء بترحابٍ ريفي، وقالت إن حقائبهم موجودة في غرفهم بالدور الثاني ... وَصِعد الأصدقاء إلى فوق، وكالمعتاد ضمَّت «لوزة» و«نوسة» غرفة، و«عاطف» و«محب» غرفة، واختار «تختخ» غرفةً عند بداية وصول السلم إلى الدور

الثاني، وعندما فتح نافذتها وجد شجرةً كبيرة تمتد أفرعها على مستوى النافذة، فتذكَّر غرفته في المعادي.

بعد الغَداء، نزل الأصدقاء مرةً أخرى إلى الحديقة، وكانت هناك مظلةٌ كبيرة من الخشب، تحتها مجموعةٌ كبيرة من الكراسي المصنوعة من أغصان الشجر، فجلسوا يتحدَّثون عن برنامج رحلتهم، فقال «سليمان»: لقد أعددتُ لكم مجموعةً من بنادق الصيد التي تعمل بضغط الهواء لصيد العصافير، ومجموعةً أخرى من السنانير لصيد السمك في بحيرة «قارون».

قال «محب»: إننا نريد أن نزور جَدَّك.

سليمان: سوف أُخبره بذلك، ولكن لن تجدوا فائدةً كبيرة من مقابلته ... إنه كما قلتُ لكم يعاني من شللٍ نصفي، يجعل فمه ملتويًا وحديثه غير مفهوم ... كما أنه أُصيب في الفترة الأخيرة بضعفٍ في الذاكرة واضح، ولكن سأبدي له رغبتكم في زيارته.

لوزة: ونريد مقابلة «عبود» الجنايني الذي يسكُن الكوخ القديم، أعتقد أنه سيروي لنا القصة الكاملة للثعبان الأعمى!

سليمان: كما قلتُ ... إن «عبود» العجوز يعيش بلا نظام، ولا نعرف له مواعيد، والحقيقة أنه تغيَّر كثيرًا عما تركتُه في العام الماضي؛ فقد أصبح قليل الحديث منعزلًا، لا نراه إلا نادرًا!

محب: وأين يتناول طعامه؟

سليمان: في الكوخ، ويحمله له السائق «ميزار».

وساد الصمت الأصدقاء لحظات، وهبَّت ريحٌ خفيفة حرَّكَت أوراق الأشجار.

وقال «محب»: هيا نذهب لصيد العصافير.

لوزة: إنني لا أريد صيد العصافير ... ما ذنب هذه الطيور الصغيرة اللطيفة لكي نقتلها؟

عاطف: سنتركُكِ مع قلبك الرقيق هنا، ونذهب نحن للصيد.

وانصرف الأولاد يَجْرون في الحديقة، وبَقِيَت «نوسة» مع «لوزة»، وبعد أن جلستا بضع دقائق قالت «لوزة»: تعالي نتمشَّى قُربَ الكوخ!

نوسة: ولماذا قُرب الكوخ؟

لوزة: لعلنا ... أقصد ... من الممكن أن نجد الثعبان الأعمى!

نوسة: «لوزة» ... كيف تفكِّرين أن مثل هذا الثعبان يمكن أن يُوجد؟

لوزة: إذن لماذا يتحدَّثون عنه؟

نوسة: إنها مجرد حكاياتٍ قديمة يتوارثها الفلاحون.

هَزَّت «لوزة» رأسها غير مقتنعة ... ثم قامتا تتمشيان، كانت أظلال الأشجار كثيفة وخاصة قرب السور الحجري الكبير، حيث تقف أشجار الجميز والكافور الضخمة، وقد انتثَرتْ أوراق الأشجار على الأرض حتى غطَّتها ... وفجأةً مَرق تحت قدمَي «لوزة» شيءٌ ما ... أحدث صوتًا واضحًا في السكون المخيِّم على المكان ... وقفَزتْ «لوزة» مرتعبة وصاحت: الثعبان ... وأمسكت «نوسة» بذراع صديقتها وجذبَتْها إليها. ونظَرتْ تحت قدمَيها فلم تجد شيئًا، وقالت «نوسة»: ماذا قلتِ يا «لوزة»؟ ... ثعبان؟

قالت «لوزة» وهي ترتجف: نعم!

نوسة: هل رأيتِهِ؟

لوزة: لا ... ولكني أحسستُ به تحت قدَمي!

هَزَّت «نوسة» رأسها في استغراب وقالت: لو كان ثعبانًا لما أحدث هذا الصوت، إنه فأر من فيران الحقل في الغالب ... ودعكِ من التفكير في الثعبان، وإلا تحوَّل كل شيء حولَكِ إلى ثعبان!

صمتت «لوزة» ومضتا تسيران حتى وجدتا نفسَيهما قُرب الكوخ القديم ... فوقفتا بعيدًا مختفيتَين تحت ظلال أشجار البرتقال والعنب ... وأخذتا ترمقان الكوخ وكلٌّ منهما تُفكِّر في «عبود» العجوز ... وفجأةً فُتح باب الكوخ وظهر في بابه السائق «ميزار» يحمل في يدَيه آنيةَ طعامٍ فارغة. ونظر حوله ثم أغلق الباب خلفه، ومضى يسير بين الأشجار متجهًا إلى القصر، فهمسَت «لوزة»: إن «عبود» العجوز في الداخل وحده ... تعالَيْ نتحدث إليه.

نوسة: إنهم يقولون إنه لا يتحدث مع أحد.

قالت «لوزة» متحمسة: تعالَيْ نحاول ... فلن نخسر شيئًا!

وتقدَّمتا في حذر حتى أصبحتا أمام باب الكوخ الذي غطَّته الأشجار المتسلقة، وتردَّدَتا قليلًا ثم تقدَّمتْ «لوزة» ودقَّت الباب في رفق وانتظَرتْ، ومضت لحظاتٌ ولم يرُدَّ أحد. فرفعَت يدها ودقَّت الباب بشدة أكثر وانتظَرتْ، ومرةً أخرى لم يرُدَّ أحد، فوضعَت أذنها على الباب، وأخذَت تُنصِت ثم قالت لـ «نوسة»: لا صوتَ في الداخل.

قالت «نوسة»: لعله ليس في الداخل الآن!

لوزة: تعالَيْ ندخل ونرى ما في داخل الكوخ.

نوسة: لا داعي لهذا يا «لوزة» فربما يكون عم «عبود» في الداخل فنُزعِجه.

لوزة: من المؤكَّد أنه إذا استيقظ ووجدنا سيُرحِّب بنا؛ فهذه عادة الفلاحين الكرماء.

نوسة: لا أدري لماذا أنتِ مُصرة!

لوزة: لعله يروي لنا بعض الحكايات وبخاصة عن الثعبان الأعمى ... وهكذا نحصل على معلوماتٍ نرويها للأصدقاء عند عودتهم من رحلة الصيد.

ودقَّت «لوزة» الباب مرةً ثالثة ولكن أحدًا لم يَرُد ... وهكذا مدَّت يدها، وأخذَت تدفع الباب لتفتحه ... وفي تلك اللحظة سَمِعَت صوتًا يقول: ماذا تفعلين؟

استدارت «لوزة» سريعًا، وقد أحسَّت بالخجل، فوجدَت السائق «ميزار» يقترب منهما ... وقالت «لوزة» بصوتٍ مبحوح: كنا نريد مقابلة عم «عبود»!

قال «ميزار» وهو يقف جانبها: إنه مريض ولا يقابل أحدًا ... وأرجو إذا شئتِ مقابلتَه أن تسأليني ... وسوف أختار وقتًا مناسبًا!

لوزة: آسفةٌ جدًّا.

ميزار: أبدًا!

وابتعدَت الفتاتان وقالت «لوزة» بعد لحظات: لقد أحسستُ بالرعب والخجل.

نوسة: قلتُ لكِ لا داعي لهذا المحاولة.

لوزة: إني مهتمة جدًّا بسماع القصة الكاملة للثعبان الأعمى ... إنها أشبه بلغزٍ قديم!

نوسة: ألا تكفينا الألغاز الحديثة حتى نبحث عن الألغاز القديمة؟

ومضتا إلى القصر، وفي الشرفة اختارتا كرسيَّين وجلستا صامتتَين ... ومن بعيدٍ كانت أصوات الطلقات ترتفع بين آونة وأخرى ... وفجأة ظهر «ميزار» وتقدَّم منهما مبتسمًا وقال في رقة: أرجو ألا أكون قد ضايقتُكما ... وإذا شئتما أن تقابلا عم «عبود» فسوف أُخطِركُما بالوقت المناسب لزيارته.

أحسَّت «لوزة» بالارتياح لحديث «ميزار» وقالت: إننا فقط نحب أن نسمع منه قصة الثعبان الأعمى.

بدا الجِدُّ على وجه «ميزار» وقال: وهل أنتما مهتمَّتان بقصة هذا الثعبان؟

نوسة: لسنا نحن فقط، ولكن جميع الأصدقاء!

ميزار: ولكن لماذا؟

نوسة: لأننا مجموعة من الأصدقاء نهوى حل الألغاز الغامضة، ونساعد العدالة. بدا الجد على وجه «ميزار» وهو يسأل: وهل سبق لكما الاشتراك في حل لغزٍ غامض؟ ابتسمَت «لوزة» قائلة: طبعًا ... عشرات الألغاز، وقد ساعَدْنا في القبض على عددٍ كبير من أعداء العدالة ... وساعَدْنا المظلومين على استعادة حقوقهم!

ميزار: شيءٌ عظيم جدًّا ...

لوزة: وهل تعرف أنت حكاية الثعبان الأعمى؟

تردَّد «ميزار» قليلًا ثم قال: نعم!

لوزة: هل رأيتَه؟

ميزار: مرارًا!

دق قلب الصديقتَين وقالت «نوسة»: رأيتَه بعينَيك؟

ميزار: طبعًا!

نوسة: وهل رآه أحدٌ غيرك؟

ميزار: كثيرون.

لوزة: وما هو شكله؟

ميزار: إنه ثعبانٌ مثل كل الثعابين، ولكنه ضخم جدًّا، لونه بين الأسود والأصفر، أعمى!

لوزة: كيف عرفتُم أنه أعمى؟

لم يَرُد «ميزار»، ولكنه أخذ ينظر حوله في خوف، ثم قال: أرجوكم جميعًا أن تبتعدوا عن طريق الثعبان … إنه شرسٌ وشديد الخطورة!

وسكت لحظات، وبدت أصوات الأصدقاء و«سليمان» تقترب، فغادر «ميزار» المكان وهو يشير بيده محذرًا: ولا تتحدَّثوا عنه … فإنه يظهر عند الحديث عن حكاياته … وهو ينتقم ممن يتحدَّثون عنه بسخرية.

شبَح القصر

على مائدة العشاء كان هناك طبقٌ من العصافير التي اصطادها الأصدقاء، وقد كان عشاء مرحًا، لولا علاماتُ الوجوم التي كانت تعلو وجه «لوزة» بين لحظة وأخرى ... فقد كان حديث «ميزار» يشدُّها إلى التفكير في الثعبان الأعمى ... وقد أفزعَها تحذيره أن من يتحدَّث عن الثعبان يظهر له ... هل هذا معقول؟ وهل يظهر لها فعلًا؟ ومتى يظهر؟ وهل يحاول أن يؤذيها؟

ونظَرتْ عَبْر المائدة إلى وجه «نوسة»، ولكنها وجدَتْها تشترك في الحديث مع بقية الأصدقاء ولا يبدو عليها أي انشغال بالحديث الذي سمعتاه من «ميزار» عن الثعبان. وانتهى العشاء، وانهمك الأصدقاء في بعض ألعاب التسلية، ثم جاء وقت النوم، وصَعِد الجميع إلى غُرفهم، وقالت «نوسة» وهي تُلقي بنفسها على فراشها: لقد كان يومًا متعبًا؛ فمنذ السادسة صباحًا ونحن لم نرتَحْ لحظةً واحدة ... إنني سأنام فورًا!

لم تَرُد «لوزة»، وعندما أطفأَت النور استلقَت على الفراش وأخذَت تفكِّر فيما سمعَتْه من أحاديث عن الثعبان الأعمى الذي لا يرى إلا عندما يجد الجوهرة الكبيرة ... شيءٌ مذهل وغريب، وسمعَت صوت تنفُّس «نوسة» المنتظم، فأدركَت أنها استغرقَت في النوم، وقرَّرتْ هي الأخرى أن تكُف عن التفكير في هذا الثعبان، وأن تُحاول أن تنام، ومضت فترة من الوقت، وبدأَت «لوزة» تُحس بالنوم يغزو أجفانها، وبدأَت تستسلم شيئًا فشيئًا له. ولكن فجأةً أحست أن أعصابها كلها تستيقظ وكأن إنذارًا خفيًّا قد دق في أعماقها ... وقد كان ذلك الإنذار على شكل صوتِ أقدامٍ متلصصة مرَّت أمام غرفتها ... وقفَزتْ «لوزة» من فراشها مسرعة ثم بمنتهى الهدوء والحذَر فتحت باب غرفتها ووارَبَته قليلًا ونظرت إلى الدهليز الطويل الذي يمثِّل امتداد السُّلم الداخلي للقصر. وعلى ضوء الصالة الكبيرة الخفيف في

الدور الأول استطاعت أن ترى شبَح شخصٍ يقف أمام حد الأبواب، ويضع أُذنه على فتحة الباب محاولًا الاستماع إلى شيء يحدث في داخل الغرفة المغلقة، كانت المنطقة التي يقف فيها الشبح مظلمة، فلم تستطع «لوزة» أن تتبيَّن شخصه، وقرَّرتْ أن تقترب منه لتراه، وكان بينها وبينه حوالي عشرين مترًا، وهي تقريبًا المسافة التي تقوم عليها غرف نوم القصر في صفٍّ واحد. مضت «لوزة» بخطًى متلصِّصة أمام الأبواب ... كانت تريد أن ترى الشبح عن قرب وتعرفه ... ولكن أملها تبدَّد ... فقد تحرَّك الشبح سريعًا متجهًا إلى نهاية الدهليز، ثم نزل السلالم مسرعًا و«لوزة» تجري تقريبًا في محاولة للحاق به ... واستطاع الشبح الذي أَحسَّ بخطواتها خلفه أن يصل إلى صالة القصر، وكان الباب مفتوحًا فمرق منه ... وبعد لحظاتٍ كانت «لوزة» تمرق من الباب هي الأخرى، ولكن فجأةً ارتفعت منها صرخةٌ مدوية وسقطَت على الأرض.

كان أول من استيقظ على الصرخة «نوسة»، ونظَرتْ إلى الفراش المجاور لها تبحث عن «لوزة»، فلما لم تجدها تصوَّرتْ أنها سبقَتْها إلى مصدر الصرخة، فغادَرتِ الغرفة مسرعة، ونظَرتْ إلى سلالم القصر فلم تجد شيئًا، ووقفَت على سور السُّلم ونظَرتْ إلى أسفل ... وعلى الضوء الخفيف في الصالة السفلى شاهدَت «لوزة» واقعة على الأرض ... لم يكن في استطاعتها أن تعرفها عن بُعد لولا أنها عَرفَت قميص نومها الأزرق وقد بدا واضحًا في فتحة الباب الخارجي للقصر.

نزلت «نوسة» مسرعة ... وخلفها ظهر «تختخ» هو الآخر ... وتسابق الاثنان للوصول إلى «لوزة» التي كانت نائمةً على ظهرها، وقد ذهبت في إغماءةٍ طويلة!

انحنى «تختخ» على «لوزة» ووضع يدَه على صدرها، ثم أمسك رسغها وأخذ يجس نبضَها وقال لـ «نوسة»: حمدًا لله، إنها ما زالت حية!

ثم نفذ من الباب ونظر حوله في الحديثة المظلمة، ولكن كان كل شيءٍ ساكنًا ولا صوت إلا حفيف الأشجار وهي تهتز في ريح الليل الهادئة، وعاد «تختخ» فحمل «لوزة» وأسرع وخلفه «نوسة» إلى غرفتها حيث مدَّدها على الفراش، وأحضَرتْ «نوسة» ... زجاجة كولونيا، وأخذ «تختخ» يحاول إفاقة «لوزة» ... ويداها متقلصتان وأنفاسها ثقيلةٌ بطيئة، وقال «تختخ» وهو مستمرٌّ في عمله: ماذا حدث؟ كيف خرجَت؟

ردَّت «نوسة»: لا أدري ... لقد استيقظتُ على الصرخة ونظرتُ في الفراش فلم أجدها ... ونزلتُ مسرعة حيث قابلتُك!

انهمك «تختخ» في إفاقة «لوزة» وبدأت بعد دقائق تسترد لونها وينتظم تنفسها ... ثم فتحَت عينَيها ونظَرتْ حولها في رعب ... وتصلَّبتْ أعضاؤها ... ولكن عندما وقع بصرها على «تختخ» و«نوسة» استرخَت وأخذت تتمتم: الثعبان ... الثعبان!

انحنى عليها «تختخ» قائلًا: اهدئي يا «لوزة»!

عادت تقول: الثعبان!

تختخ: أي ثعبان؟

لوزة: الثعبان الأعمى! لقد قابلتُه!

وغطَّت عينَيها كأنها تريد إبعاد صورته، فنظر «تختخ» إلى «نوسة» وهزَّ رأسه فقالت «لوزة»: إنني لا أَهذي ... لقد رأيتُ الثعبان!

تختخ: أين؟

لوزة: أمام باب القصر ... لقد كنتُ أطارد الشبح، ففوجئتُ بالثعبان يخرج من بين الأعشاب!

تختخ: متى حدث هذا؟

لوزة: الآن ... منذ دقائقَ قليلة، أو ربما منذ فترةٍ طويلة فلست أدري بالضبط.

تختخ: لقد سمعتُكِ تصرخين، واتجهنا أنا و«نوسة» إليكِ فوجدناكِ مغمًى عليك عند باب القصر.

لوزة: منذ متى؟

تختخ: منذ عشر دقائق تقريبًا.

لوزة: إذن ابحث عن الثعبان ... إنه عند الباب.

تختخ: اهدئي يا «لوزة»، لعلكِ فقط كنتِ تحلمين!

لوزة: أحلم؟ أبدًا ... لقد سمعتُ صوت أقدام شخصٍ أمام باب غرفتي يمشي متلصصًا فخرجتُ خلفه، فوجدتُه يقف أمام باب إحدى الغرف ويتنصَّت، وعندما اقتربتُ منه نزل السلم مسرعًا وفتح باب القصر وخرج ... ولما حاولتُ اللحاق به ظهر لي الثعبان الأعمى بين الأعشاب!

تختخ: وكيف عرفتِ أنه أعمى؟

تردَّدتْ «لوزة» قليلًا ثم قالت: لا أدري ... ولكني ... ولكني!

قال «تختخ»: إن حكاية الثعبان الأعمى أثَّرتْ عليك تمامًا، فأنت تتخيلين ثعبانًا في كل مكان ... ولكني أؤكِّد لك ...

لوزة: لا تقل إنني أَهذي أبدًا، لقد شاهدتُ الشبَح، وشاهدت الثعبان، وأنا متأكدة مما أقول!

اشتركَت «نوسة» في الحديث قائلة: سأذهب لأرى هذا الثعبان، لعله ما زال موجودًا!

تختخ: بل سأذهب أنا.

وغادر «تختخ» الغرفة مسرعًا، ومشى بهدوء حتى نزل سلالم القصر الداخلية، واقترب من الباب، وأَحسَّ رغمًا عنه برعدةٍ تشمل جسده، ودار بذهنه أنه ربما … ربما يقابل هذا الثعبان الأسطوري الذي يتحدَّث عنه الناس بخوف ورهبة!

كانت مفاجأة «تختخ» أن يجد الباب قد أُغلق … فمن الذي أغلقه؟ وتلفَّت حوله في حذَر، كان يعرف أنه لا يُوجد بالقصر الكبير سواهم، و«عفيفي» العجوز جد «سليمان»، والشغَّالة «فرحانة».

وأحسَّ بشيءٍ غامض يحدث من حوله، ولكنه لم يكن يدرك ما هو بالضبط، ثم خُيِّل إليه أنه سمع صوت بابٍ يُغلَق من بعيد، وساد صمتٌ ثقيل لا يقطعه إلا صوت الساعة الكبيرة في الصالة وهي تدق دقةً واحدة معلنة مرور ساعة بعد منتصف الليل، وتقدَّم «تختخ» من باب القصر وفتَحَه في هدوء، لم يكن هناك شيءٌ غير عادي.

وخطا خطوةً واجتاز باب القصر إلى الحديقة الواسعة التي يسودها الظلام الكثيف، وأَحسَّ مرةً أخرى برعدةٍ عندما تذكَّر أن الثعبان الأسطوري قد يخرج له فجأةً من بين الأشجار المتقاربة … واستروح نسيم الليل البارد المثقَل برائحة الورود والفاكهة، ووقف لحظاتٍ يُحدِّق في الظلام، وتردَّد بين أن يعود إلى القصر أو يُمعِن في الحديقة باحثًا عن أي شيءٍ يمكن أن يُفسِّر ظهور الثعبان الأعمى كما قالت «لوزة» … كان النوم قد طار من رأسه فقرَّر أن يسير قليلًا، فمضى خطواتٍ حتى خُيِّل إليه أنه سمع صوت أقدامٍ مسرعة تتجه ناحية الكوخ حيث يعيش «عبود» العجوز، فمضى يتبع الخطوات، واضطُر إلى أن يجري، ثم فجأةً توقفت الخطوات تمامًا وساد الصمت، ولم يعُد يسمع سوى صوت أنفاسه المتلاحقة … ومضت لحظات وهو واقفٌ في مكانه، ثم عاودَت الخطوات المجهولة وَقْعها على أوراق الأشجار الساقطة على الأرض ببطء وحذَر.

ومضت المطاردة بين المجهول ذي الخطوات البطيئة الحَذِرة وبين «تختخ».

كانت روح المغامرة تشُد «تختخ» إلى المضيِّ خلف الخطوات المجهولة؛ برغم ما قد يحدُث له في الظلام، واستمرَّت المطاردة فترة، ثم عادت الخطوات المجهولة إلى التوقُّف، وتوقَّف «تختخ» أيضًا وهو يمُد رأسه إلى الأمام مصغيًا السمع حتى لا يفقد أَثر المجهول

عندما يتحرك مرةً أخرى، ومضت فترة طويلة بدون أن يعاود المجهول سيره، وكاد «تختخ» أن يعود إلى القصر يائسًا لولا أن سمع حركةً خفيفة، وطار طائرٌ كأنما أفزعه شيءٌ وأخذ يتخبَّط بين الأغصان، وأدركَ «تختخ» أن المجهول كان يُحاوِل الصعود فوق شجرة عندما أفزع الطائر.

وهكذا اتجه «تختخ» مسرعًا إلى حيث مصدر الصوت، وفي هذه اللحظة أصابَتْه ضربةٌ مفاجئة على رأسه وسقَط على الأرض وهو يسمع صوت الخطوات المجهولة تمضي مسرعةً مبتعدة عنه.

كان ملقًى على الأرض ورأسُه يدور بدون أن يفقد وعيه، وأدرك أن هذه المطاردة الليلية وما حدث لـ «لوزة» هو بداية مغامرةٍ لا يدري كيف تنتهي ... وبقي في مكانه فترة يفكِّر ... هل يمضي في البحث عن حقيقة ما يحدث في هذا القصر القديم أو يتراجع؟

وبرغم الألم الذي كان يُحِسُّه في رأسه، فقد قرَّر أن يمضي في مغامرته الليلية ... وهكذا قام وسار بخطواتٍ نشيطة في اتجاه الكوخ، أو ما خُيِّل إليه أنه اتجاه الكوخ ... ومضت فترةٌ وهو يمشي حتى رأى في الظلام ضوءًا خفيفًا فاتَّجه إلى مصدره، ووجد نفسه أمام كوخ عم «عبود». كان الباب مغلقًا، وكان الضوء يأتي من فتحةٍ صغيرة في نافذته، فاتجه إلى الفتحة ووقف على أطراف أصابعه ونظر إلى داخل الكوخ في حدود رؤيته فلم يجد أحدًا، فأخذ يُدير بصره، وفجأةً سمع صوتًا خشنًا يأتي من خلفه يقول له: من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

شلَّت المفاجأة تفكير «تختخ» لحظات، ثم دار على عقبَيه ونظر إلى حيث مصدر الصوت، وبقَدْر ما استطاعت عيناه الرؤية في الظلام رأى عجوزًا ممسكًا بعصًا غليظة واقفًا بين أشجار الخوخ الكثيفة الأوراق ... وأدرك أنه عم «عبود» الجنايني العجوز، فقال له: أنا «توفيق» ... ضيف عند «سليمان».

قال «عبود» في صوتٍ خشن: ابتَعِد عن هذا الكوخ ... ودعكَ من البحث عن الثعبان الأعمى!

أشباح وثعابين

في صباح اليوم التالي عقَد الأصدقاء أول اجتماعٍ لهم منذ حضورهم إلى عزبة «عفيفي»، كان عندهم ما يتحدثون عنه ... حكاية «لوزة» مع الثعبان الأعمى ... وحكاية «تختخ» والمطاردة الليلية التي انتهت أمام الكوخ، وتحذير «عبود» له بالابتعاد عن الكوخ والثعبان.

كان رأس «تختخ» ما زال يؤلمه، ولكن لم يكن هذا الألم يشغل باله بقَدْر ما شغل باله تأكيدُ «لوزة» بأنها رأت الثعبان ... فهل الثعبان الأعمى حقيقة وليس مجرد أسطورة من أساطير الفلاحين الكثيرة عن العفاريت والجان وغيرها؟

وكانت «لوزة» تحكي قصتها العجيبة لـ «عاطف» و«محب» اللذَين لم يستيقظا ليلًا، ثم جاء الدور على «تختخ» فروى حكايته مع المجهول في الحديقة، وكيف عاد إلى القصر واطمأنَّ على «لوزة» ثم نام.

قال «عاطف» معلقًا: هذه أول مغامرة لنا مع الثعابين والأشباح ... وأظن أنها محتاجة لأكثر من مجرد الاستنتاجات!

محب: ماذا تقصد؟

رد «عاطف» مبتسمًا: أقصد أننا محتاجون إلى كمية من البخور، والرُّقَى، والتعاويذ حتى نستطيع التعامُل مع هذه المجهولات.

لم يكن عند «لوزة» استعدادٌ للردِّ على أخيها كالمعتاد ...

ولكن «محب» قال: بل إنني أجد الاستنتاجاتِ ضروريةً جدًّا؛ فمثلًا هناك سؤالٌ هام ... هل عم «عبود» العجوز هو الشبح الذي طارَده «تختخ» في الظلام؟

نوسة: لا شك أنه هو؛ فقد كان يحمل عصًا في يده، وربما هي الأداة التي ضرب بها «تختخ»، وقد حذَّرنا من الثعبان الأعمى ... فلا شك أن له علاقة بالثعبان الذي رأَته «لوزة».

تختخ: هل تتصوَّرون رجلًا عجوزًا مثل «عبود» يستطيع أن يجري في الظلام بسرعة؟ وهل تتصوَّرون أنه من الممكن أن يصعد فوق شجرة ... ثم يضربني ويقفز جاريًا؟

محب: إننا لم نَرَه حتى الآن ... سمعنا عنه فقط من «سليمان» ومن السائق «ميزار»، ولكنك رأيتَه ويمكنك أن تُجيب على السؤالَين!

تختخ: الحقيقة أنني لم أَرَه جيدًا ... فقد كان الظلام كثيفًا، والرجل يقف في ظل الأشجار، فلم أَرَ سوى لحيته البيضاء، والعمامة التي يربط بها رأسه ... وأجزاء من ملابسه الممزَّقة!

قالت «نوسة»: وهناك سؤالٌ آخر هام ... هل الشبَح الذي رأَته «لوزة» داخل القصر يتجسَّس على الغرفة هو نفس الشبح الذي طارَدَه «تختخ» في الظلام؟

لوزة: أظن أنه ليس هو ... فقد كان أخف حركة ...

وهنا قفز سؤالٌ ثالث قاله «تختخ»: أي غرفة من الغرف كان يتجسَّس على من فيها؟

لوزة: إنني أعرف مكان الغرفة، ولكني لا أعرف مَن فيها.

كان الاجتماع بينهم قد تم في غرفة «لوزة» و«نوسة»، فقال «عاطف»: تعالَوا إلى قرب الغرفة التي كان يتجسَّس عليها.

تختخ: وأُفضِّل ألا يعرف أحد أننا نبحث عن شيء ... وسنمشي جميعًا في الدهليز، وعندما نصل إلى باب الغرفة المقصودة، فعلى «لوزة» أن تنحني وكأنها تربط حذاءها، وسنعرف أنها الغرفة المقصودة.

عاطف: ولماذا كل هذه الحركات؟

تختخ: لأننا لا نعرف حتى الآن أصدقاءنا من أعدائنا ... ويجب أن نكون على حذَر، فالمسألة تبدو لي خطيرة.

وهكذا خرج الأصدقاء يمشُون في الدهليز العلوي، حتى وصلوا أمام إحدى الغرف الكثيرة، فانحنت «لوزة» وتظاهرت أنها تربط حذاءها، فعرف الأصدقاء الغرفة المقصودة ومضَوا إلى الحديقة، وكان «سليمان» في انتظارهم ومعه عددٌ من الفلاحين يمسكون بأزمَّة عددٍ من الحمير أحضروها ليقوم الأصدقاء بنزهة إلى شاطئ بحيرة قارون على ظهورها.

كان الجو لطيفًا برغم أنهم كانوا في شهر يوليو الحار ... وتسابَقَ الأصدقاء على ظهور الحمير للوصول إلى شاطئ البحيرة سريعًا، وهناك نزلوا في معسكر الشباب المقام على ربوةٍ عالية، فشَربوا المثلجات وقضَوا وقتًا ممتعًا نسُوا فيه كل شيء عن الثعبان الأعمى. وعندما عادوا صَعِد معهم «سليمان» إلى فوق، وانتهز «تختخ» الفرصة وسأل «سليمان» عن الحجرة التي توقَّفتْ أمامها «لوزة».

فقال «سليمان»: إنها غرفة جدي الأستاذ «عفيفي»، ألم أقل لكم هذا من قبلُ؟

تختخ: لا! وبالمناسبة ألن تدعونا إلى زيارته؟ ... إننا نريد أن نقابله ونسلم عليه!

سليمان: سيسعد بهذا كثيرًا؛ فإنه لم يعُد يقابل أحدًا إلا نادرًا، وسوف أستأذنه أن يلقاكم هذا المساء.

بعد الغداء اجتمع الأصدقاء مرةً أخرى وأخبرهم «تختخ» بأنهم قد يقابلون الأستاذ «عفيفي» في المساء، وأنه سيُوجِّه الحديث بحيث يحاول معرفة مزيد من المعلومات عن الثعبان الأعمى.

وجاء «سليمان» في الخامسة والنصف ليُخبِرهم أن جدَّه سيراهم في السادسة، واستعد الأصدقاء للقائه.

في السادسة تمامًا، فتحَت الخادمة العجوز والتي تقوم بتمريض «عفيفي» لهم الباب ليدخلوا غرفة الرجل، ولاحظ «تختخ» أنها لم تكن سعيدةً بهذه الزيارة؛ فقد رمقَتهم بنظرةٍ حادة وهم يجتازون الباب.

شمل «تختخ» الغرفة بنظرةٍ سريعة ... كانت غرفةً واسعة للغاية يغطِّي حوائطها ورقٌ جميل وإن كان قديمًا، وقد حفلَتْ باللوحات والتماثيل، وعلى فراشٍ كبير كان يرقد الأستاذ «عفيفي» وعلى جسده أغطيةٌ خفيفة ... وقد سكن كل شيءٍ فيه عدا عينَيه اللتَين تألَقت فيهما نظرةُ ترحيب بالأصدقاء.

وتقدَّم الأصدقاء واحدًا بعد واحد، و«سليمان» يقدِّمهم لجده، وهو يغلق عينَيه علامة ترحيب، ويحاول أن يتحدَّث ... ولكنَّ شفتَيه كانتا تتحركان بدون أن يصدُر منهما صوتٌ واضح، وأَحَس «تختخ» أنه لن يحصل على المعلومات التي كان يتمناها ... وأشار إليهم «عفيفي» بالجلوس، فأحاطوا به، وقال «تختخ»: لقد جئنا نشكرك على استضافتنا في هذا القصر الجميل ... ونتمنى لك الصحة والعافية.

حرَّك الرجل الراقد رأسه إلى الأمام محاولًا أن يرد بالشكر، وفي الوقت نفسه صدَرتْ من شفتَيه المضمومتَين كلمة: شكرًا! ...

وعاد «تختخ» ليقول: لقد كنا نتمنى أن نسمع بعض ذكرياتك؛ فإننا نسعد كثيرًا عندما نستمع إلى حكمة الكبار، ونستفيد من تجاربهم!

وأشار الرجل إلى «تختخ» بإصبعه ليقترب منه، وتقدَّم «تختخ» بحيث استطاع الرجل أن يرفع يده غير المشلولة ثم يضعها على رأسه ويعبث بشعره في حنان، ثم قال في كلماتٍ خرجت متعثرة من فمه: إنكم أولادٌ ظرفاء وأذكياء.

ووجد «تختخ» الفرصة مناسبة فأشار إلى «لوزة» أن تقترب من الرجل العجوز الذي اغتصب ابتسامةً من شفتَيه المرتعشتَين، وأشار «تختخ» إلى «لوزة» وقال: هذه صديقتنا «لوزة»، وهي فتاةٌ ذكية ... ولكنها أمسِ تعرَّضَت لحادثٍ غريب!

وبدا الاهتمام في عينَي العجوز، وهَزَّ رأسه وكأنه يقول احكِ لي ما حدث.

فقال «تختخ»: لقد شاهدَت أمسِ شبَح رجلٍ يتجول في القصر ليلًا ... ثم توقَّف أمام غرفتك!

وأغمض الرجل عينَيه لحظات، وعندما فتحَهما بدت فيهما نظرةٌ تدل على الفهم، وقال بصعوبة: إني لا أنام أكثر الوقت ... وقد سمعتُ صوت الخطواتِ أمس ... وسمعتُ صرخة! وقد حاولتُ أن أضرب الجرس ولكنني وجدتُه معطلًا ... وجدتُه لا يدق، وقد طلبتُ من «ميزار» أن يصلحه.

ومضى «تختخ» يقول: وعندما تَبعَت «لوزة» الشبح إلى باب القصر شاهدَت ثعبانًا أمام الباب!

عندما سمع العجوز كلمة «الثعبان» لمعَت في عينَيه المتعبتَين نظرةٌ خاطفة، ثم أغمضهما، وبدت على وجهه المرهق علامات الألم، ولاحظ «تختخ» أن النظرة كانت موجَّهة إلى مكان في الغرفة خلف ظهره، ولم يستطع معرفته!

ساد الغرفة صمتٌ ثقيل ... وتركَّزتْ نظرات الأصدقاء الخمسة و«سليمان» على وجه «عفيفي» ... ولكنه ظل صامتًا لا يَرُد ... ومضت فترةٌ ثم أشار بيده لـ «سليمان»، وفهم «سليمان» إشارته، وكانت تعني أن المقابلة قد انتهت.

هَزَّ «عفيفي» رأسه للأصدقاء بما يعني الشكر لهم على الزيارة، وتمتم ببضع كلماتٍ أدرك الأصدقاء أنه يشكرهم بها، فغادروا الغرفة الصامتة الواسعة بعد أن كرَّروا شكرهم للعجوز المشلول.

عندما أصبح الأصدقاء في الحديقة ظلوا فترةً صامتين حتى حضر «سليمان»، الذي وجَّه حديثه إلى «تختخ» في عتابٍ قائلًا: لماذا لم تروِ لي ما حدث ليلة أمسِ؟

ردَّ «تختخ» وهو يشعر ببعض الحرج: آسف جدًّا يا «سليمان»، الحقيقة أنني كنتُ أريد التحري عن الموضوع وحدي، ولم أكُن أريد إزعاجك؛ فقد تُحس بالحرج لأنك دعوتَنا في هذا الجو العجيب!

سليمان: كيف تقول هذا الكلام؟ إننا أصدقاء وأنا أثق بكم جدًّا. ولكن الحقيقة ... وسكت «سليمان»، فقال «تختخ»: الحقيقة ماذا؟

زمَّ «سليمان» شفتَيه وكأنه يحاول أن يمنع نفسه عن الكلام ثم قال: الحقيقة أني دعوتكم ... وعندي أسباب، منها أن تستمتعوا بإجازة هنا ... إذا لم يتحرك الثعبان الأعمى ويضايقكم ... ومنها أنه إذا تحرَّك الثعبان فإنكم ستحمونني منه!

كانت الجملة مفاجئة، حتى قفزَت «نوسة» من مكانها، وقالت: نحميك منه! إنني لا أفهم، ماذا تقصد؟!

مد «سليمان» يده في جيبه وأخرج ورقةً صغيرة ثم فتحها ومدَّ يده بها إلى «تختخ» وأمسك «تختخ» بالورقة وقرأ ما فيها:

«غادر القصر فورًا ... إذا كنت حريصًا على حياتك.»

أعطى «تختخ» الورقة «لمحب» الذي قرأها ثم أعطاها «لعاطف». وبينما الأصدقاء يقرءون كان «تختخ» قد اقترب من «سليمان»، وقال له: متى تسلَّمتَ هذه الورقة؟

سليمان: بعد حضوري بثلاثة أيام.

تختخ: لماذا لم تقل لنا من البداية؟

سليمان: كما أخفيتُم عني لخوفكم من إزعاجي ... خِفتُ أن أقول لكم ... كنتُ في انتظار تحرُّك الثعبان الأعمى لأقول لكم؛ فأنتم وحدكم الذين تستطيعون حل لغزه.

تختخ: إنني أريد أن أسمع منك القصة كاملة!

سليمان: إنها قصةٌ قديمة ممتدة من أجدادي حتى الآن، كانت تختفي وتظهر في ظروف عجيبة ... وبعد أن ظلَّت فترةً طويلة لا يسمع بها أحد، بدأت تعود منذ حضَرتْ هنا في إجازة نصف السنة ... فقد ظهر الثعبان في تلك الفترة ... حتى إن أغلب الفلاحين الذين كانوا يعملون في القصر غادروه خوفًا منه بعد أن تعرَّضتْ حياة بعضهم للخطر الشديد ...

قصة الجوهرة

كان الأصدقاء يستمعون في انبهارٍ شديد لحديث «سليمان»، وقال «تختخ»: أظن أننا متفقون جميعًا على خرافة وجود ثعبانٍ أعمى يبحث عن جوهرته المفقودة ليستعيد بصره.

ردَّ «محب»: طبعًا، هذا كلامٌ غير معقول!

عاطف: إنه مجرد نكتة، ولكنها لا تُضحك.

لوزة: لكنني رأيتُه بنفسي!

تختخ: لقد رأيتِ ثعبانًا ... ولكن هل هو أعمى؟ وهل يبحث عن جوهرةٍ مفقودة منه؟

نوسة: من المؤكد أن هناك شخصًا له مصلحة في ترويج هذه الأسطورة!

تختخ: تمامًا ... هذا هو الكلام المهم ... من هو صاحب المصلحة في ترويج هذه الأسطورة؟ الشخص الذي يُحاول إبعاد كل من يعمل في القصر ليخلو له الجو!

محب: ربما من الأفضل أن نقول أولًا: ما هو هدفه من ترويج الأسطورة، وإبعاد الناس عن القصر؟

تختخ: هذا معقول جدًّا ... والسؤال موجه إلى «سليمان».

سليمان: الحقيقة أنني لا أستطيع الإجابة على هذا السؤال ... فأنا لا أعرف هدفًا لهذه الأسطورة!

نوسة: أظن أنني أستطيع الإجابة على السؤال.

التفت الأصدقاء إلى «نوسة» في دهشةٍ فقالت: إن أسطورة الثعبان الأعمى مكونة من شيئَين ... الثعبان والجوهرة التي يبحث عنها، وما دام الثعبان قد ظَهر ورأته «لوزة»، فإن ما ينقص الأسطورة هو الجوهرة، فلا بد أن الهدف من ترويج الأسطورة هو العثور على الجوهرة ... وقد سمعنا من «سليمان» أن الفلاحين يعتقدون أن الجوهرة موجودة في القصر ... إذن فالشخص أو الأشخاص الذين يروِّجون للأسطورة، ويعملون على إبعاد

الناس عن القصر، يعتقدون حقًّا أن الجوهرة في القصر، وبإبعاد الناس عنه يخلو لهم الجو للحصول على الجوهرة.

كان كلام «نوسة» منطقيًّا جدًّا ومعقولًا، حتى لقد خبط «سليمان» جبهته بيده وقال: كيف غاب عني هذا؟ إن القصة أصبحَت واضحةً الآن في ذهني.

تختخ: في هذه الحالة، أرجو أن تحكي لنا الحكاية من أولها!

استجمع «سليمان» تفكيره لحظاتٍ ثم قال: بدأَت حكاية الثعبان الأعمى منذ فترةٍ طويلة لا أستطيع تحديدها، ولكن كما سمعتُ من جدي ومن والدتي، أن أحد أجدادي كان يهوى اقتناء الجواهر النادرة، وأنه اشترى ذات مرة جوهرةً ضخمة شديدة البريق، حتى قيل إن الأعمى يستطيع رؤية بريقها ... وانتشَرتْ بين الفلاحين أسطورةٌ تقول إن هذه الجوهرة كان يملكها ثعبانٌ أعمى يرى بها الطريق، فيقذفها ثم يسير على بريقها.

وابتسم «عاطف»، فقطع «سليمان» حديثه ونظر إليه ثم استأنف: وتعرَّض القصر لأكثر من محاولة لسرقة الجواهر، وبخاصة هذه الجوهرة النادرة، ومات والد جدي تاركًا خلفه ثروةً من الجواهر، ولكن أبناءه اقتسموها وباعوها، ولكن يقُال إن جوهرة الثعبان بقِيَت في القصر ... وبين فترةٍ وأخرى كانت تتردَّد أسطورة الثعبان، وأنه يظهر أحيانًا ويحوم حول القصر محاولًا استعادة جوهرته المفقودة.

سكَت «سليمان» وأخذ ينظر إلى الأصدقاء لحظاتٍ ثم مضى يقول: وفي إجازة نصف السنة؛ أي في شهر فبراير الماضي، حضَرتُ لزيارة جدي، فكما تعرفون أن والدتي سافَرتْ مع أبي إلى الخارج لأنها تدرُس للدكتوراه، وعندما جئتُ إلى القصر سمعت من عم «عبود» أن الثعبان بدأ يظهر مرةً أخرى في الحديقة ... وانتشَرتِ الإشاعات، وبخاصة بعد أن ظهر الثعبان فعلًا أمام بعض الفلاحين ليلًا، وبرغم شجاعة الفلاحين، فكثيرٌ منهم قتلوا ثعابينَ مماثلة ... إلا أنهم أجمعوا على أنه ثعبانٌ ضخم لا يمكن لأحد قتلُه ... وهكذا كان الفلاحون يرفضون دخول القصر ليلًا، ولم يبقَ عندنا سوى الخادمة العجوز «فرحانة» و«ميزار» السائق وعم «عبود» الجنايني وناظر العزبة ...

وتوقَّف «سليمان» يسترد أنفاسه، فقال «تختخ»: إن القصة واضحة، ومن الممكن استنتاج أشياءَ كثيرة من هذه الوقائع، ولكن الشيء العجيب هو ظهور الثعبان فعلًا ... ليلًا ... كيف؟!

قال عاطف مبتسمًا: لعله عضو في العصابة!

وعاد «سليمان» إلى الحديث قائلًا: والآن ما رأيكم؟

قال «محب»: رأيي أن هناك من يحاول الحصول على جوهرة الثعبان كما تُسمُّونها، وأن الأسطورة ليست إلا محاولة لإبعاد الناس حتى يخلو له الجو!

نوسة: وعندما ظهرنا نحن حاول إبعادنا أيضًا، بتخويف «لوزة» وضرب «تختخ» … ولا ندري ماذا سيحدُث بعد ذلك!

لوزة: ولكن الثعبان … كيف يظهر ويختفي في الوقت المناسب؟

تختخ: ذلك شيء سنعرفه فيما بعدُ … ولكنْ هناك سؤالٌ هام أَودُّ أن أحصل على إجابة عليه … هل الجوهرة موجودة فعلًا؟

سليمان: حسب معلوماتي هي موجودة!

تختخ: أين؟

سليمان: هذا ما لا أستطيع معرفته مطلقًا … ربما تعرف والدتي!

عاطف: ولكن جدَّك يعرف بالطبع!

سليمان: لا شك في هذا!

عاطف: ولماذا لا تسأله؟

سليمان: لا أظن أنه سيقول لي.

وهنا وقف «تختخ» وقد برقَت عيناه وقال: أظن أنني أعرف أين تُوجد الجوهرة!

والتفت إليه الأصدقاء في اهتمامٍ وقد بدت على وجوههم علامات اللهفة، ولكن «تختخ» قال: لا تحاولوا أن تعرفوا مني مكانها … لأني لستُ متأكدًا فهو مجرَّد استنتاج … ولكني سأحاول التأكُّد في أقرب فرصةٍ ممكنة.

وساد الصمت الاجتماع فترةً من الوقت ثم قطعَت «لوزة» الصمت قائلة: المهم ما هي خطتنا القادمة؟ كيف نتصرف؟ من غير المعقول أن نبقى ساكتين وهناك عدوٌّ خفي يسعى لإيذائنا!

قال «تختخ» في هدوء: الزموا غرفكم الليلة جميعًا، ولا تغادروها لأي سبب، وفي الصباح سوف يكون بيننا حديثٌ آخر … والآن هيا نلعب ونستمتع بهذا الجو الجميل؛ فنحن قد جئنا أولًا لقضاء إجازةٍ طيبة.

وانقضى المساء في سَمرٍ لطيف، ثم صَعِد الأصدقاء إلى غرفهم … وعندما انفرد «تختخ» بنفسه في غرفته أخرج دفتر مذكراته الصغير الذي لا يفارقه، وأخذ يُدوِّن فيه المعلومات الهامة في القصة، وكان هناك عددٌ كبير من علامات الاستفهام بعد كل اسم، ثم أطفأ النور وفتح النافذة.

وقضى «تختخ» وقتًا طويلًا مستلقيًا على فراشه، وهو يحدِّق في الظلام وذهنه يعمل في سرعةٍ هائلة، كان يعرف أنه يجب عليهم أن يتحرَّكوا قبل أن يتحرَّك العدو الخفي … فقد يُوقِع ضررًا بهم لا يمكن إصلاحه … ووضع يده على رأسه مكان الخبطة التي نالته ليلًا. وكان يتابع دقات الساعة الكبيرة في الدور الأول من القصر.

وعندما دقت الساعة ١٢ دقةً معلنةً انتصاف الليل، تسلَّل بهدوء ونظَر من النافذة إلى الحديقة الكبيرة الغارقة في الظلام، ثم تسلَّل بهدوء وعَبَر النافذة إلى غصن الشجرة الكبيرة التي تصل إلى حافة النافذة، وهبط بهدوء إلى الأرض. توقَّف قليلًا مكانه وأصاخ السمع … لم يكن هناك سوى صوت بعض الطيور الليلية، وحركات بعض فئران الحقل … ولا شيء آخر. وهكذا بدأ يشق طريقه بين الأشجار الكثيفة متجهًا إلى كوخ عم «عبود»، كان في نفسه شيءٌ مبهم يؤكِّد له أن الكوخ فيه من الأسرار أكثر مما يوحي مظهره البسيط، وأن عم «عبود» هو الرجل الذي يمكن أن يوضِّح الألغاز التي تُحيط بالعدو الخفي.

كان قد حدَّد خط سيره منذ الصباح حتى لا يتوه في الظلام، وهكذا وضع القصر خلفه واتجه إلى الشرق … وكان يتوقف بين فترة وأخرى يتنصَّت … وخُيِّل إليه في إحدى المرات أنه سمع صوت أقدامٍ خلفه، ولكنه استبعد أن يكون هناك من يتبعه …

بعد فترة وجد نفسه قريبًا من الكوخ … فوقف يستجمع أنفاسه، ومرةً أخرى خُيِّل إليه أنه يسمع صوت أقدامٍ خلفه توقفَت بمجرد أن توقف … وفكر لحظاتٍ ثم اقترب من الكوخ … في هدوءٍ محاولًا عدم إحداث أي صوت … كان الكوخ مغلق النوافذ بإحكامٍ هذه المرة … ولكنْ ثَمَّةَ نورٌ كان يتسلَّل من خلالها، فأدرك أن ثَمَّةَ شخصًا أو أشخاصًا في الداخل، وزاد اقترابه، وألصق أُذنه بفتحة الباب … كان يرجو أن يسمع حوارًا أو أي شيء يهديه إلى معرفة ما يدور داخل هذا الكوخ، ولكنه لم يسمع أي صوت … ومضت لحظات، وخُيل إليه أن ثَمَّةَ صوتَ أقدامٍ تتحرك في الداخل متجهة إلى الباب، فأسرع يبتعد عنه … وربَض في الظلام يرقب ما يحدُث … انطفأ النور في الكوخ … ثم فُتح الباب … وظهر رجل كالشبح في الظلام. وبدا لـ «تختخ» أنه يحمل شيئًا مثل الكيس على ظهره، وخطا الرجل خارجًا ثم أغلَق الباب خلفه … وسار الرجل … وكانت مفاجأةً رهيبة أن رأى «تختخ» الرجل مقبلًا نحوه تمامًا … في المكان نفسه الذي يقف فيه … ولم يكن بينهما أكثر من مترَين، فعندما ابتعد «تختخ» عن الباب لم يكن قد ابتعَد كثيرًا …

كان يعرف أنه إذا تحرك فسوف يُحس الرجل بحركته، وإذا بقي في مكانه فسوف يصطدم به … وكان عليه أن يختار في لحظةٍ واحدة … ولكنه تردَّد … وفجأةً حدث ما لم

يكن في الحسبان ... فقد سمع الاثنان؛ «تختخ» والرجل، صوتَ أقدامٍ تتحرك قريبًا منهما معًا ... وأسرع الرجل عائدًا إلى الكوخ وفتح الباب ثم أغلقه خلفه ... وتنفَّس «تختخ» الصُّعَداء ... فقد أنقذَته الأقدام المجهولة من مصيرٍ مجهول ... وإن كانت في الوقت نفسه قد ضيعَت عليه فرصة معرفة الرجل ... ولكنه أفاق فجأةً على صوت الأقدام تقترب منه، وأسرع يختفي خلف شجرة متحفِّزًا ... وفي سكون الليل سمع صوت بومة قريبًا، وعرف صاحب الأقدام على الفور ... إنه أحد الأصدقاء ... فهذه هي العلامة المتفق عليها بينهم ... ولم تخب ظنونه ... فقد ظهر بجواره «محب».

همس «تختخ» في الظلام: ما الذي أتى بك؟

ردَّ «محب»: لقد عرفتُ من حديثك لنا أنك ستخرج الليلة، فراقبتُ نافذة غرفتك، فقد لفت نظري الشجرة العالية التي تصل إليها، وأدركتُ أنك ستنزل عن طريقها ... وعندما بدأتَ تتسلق الشجرة، أسرعتُ أنا بالخروج من الباب ولحقتُ بك ... واستطعتُ أن أسمع صوت أقدامك ...

تختخ: لقد سمعتُ صوت أقدامك أنا أيضًا!

محب: وماذا اكتشفتَ؟

تختخ: هل رأيتَ الرجل؟

محب: نعم، ولكن على بُعدٍ فلم أعرفه.

تختخ: وأنا أيضًا لم أعرفه ... فالظلام كثيف والأشجار متقاربة ومن الصعب تبيُّن شيء!

محب: وماذا ستفعل الآن؟

تختخ: ما رأيك؟ ... هل نعود؟

محب: أعتقد أنها فرصة أن نعرف من هو الرجل، فدعنا ننتظر بعض الوقت.

وقبَع الصديقان في الظلام ... وكلهما آذانٌ مرهفة، وعيونٌ محملقة.

الثعبان الأعمى

في صباح اليوم التالي اجتمع الأصدقاء، وروى «تختخ» لهم رحلة الأمس الليلية التي انتهت بعودته هو و«محب» ... إلى القصر، بعد أن انتظرا طويلًا أمام الكوخ بدون أن يعاود الرجل الظهور.

قالت «نوسة» معلقة: وماذا تستنتج من رحلة الرجل أو الشبح الليلية؟

تختخ: لا أدري؛ فلم أستطع معرفته، كما أنه لم يذهب إلى أي مكانٍ لنعرف ماذا كان يريد أن يفعل!

لوزة: لقد كان في طريقه إلى القصر ... فهو بلا شك الشبح نفسه الذي شاهدتُه ليلة أمسِ الأول!

تختخ: ليس من المستبعد أن يكون هو الشبح نفسه، ومعنى هذا أنه مُصِر على إنهاء مهمته في القصر!

نوسة: أية مهمة؟

تختخ: لا أرى مهمة غير الحصول على الجوهرة!

عاطف: ولماذا لا نُحذِّر الأستاذ «عفيفي» ليبعد الجوهرة من القصر وينتهي الأمر!

لوزة: بدون أن نحل لغز الثعبان الأعمى، وشبح الرجل المجهول؟!

عاطف: أليس هذا أفضل من أن نتعرض للخطر؟

تختخ: دعونا ننتظر ونرى ... وفي هذه المرة سوف نشترك جميعًا في مطاردة الشبح ... إنه يتحرك دائمًا قرب منتصف الليل، ولا أدري ما هو السبب، ولكننا سنعرف فيما بعدُ ... ولهذا سنظل جميعًا مستيقظين حتى الساعة الواحدة صباحًا في انتظار ما يفعل!

نوسة: ولكن لماذا لا نحصر شبهتنا في واحد ممن حولنا؟ إن هذه هي طريقتنا الدائمة.

تختخ: معكِ حق ... ولكني فعلتُ هذا فعلًا ... والمشتبه فيهم كثيرون ... عندنا «عبود» العجوز و«ميزار» والشغالة وناظر العزبة ... وقد يكون أحدهم هو الشبح، وقد يكون الشبح أحد الفلاحين الذين يعملون في القصر نهارًا ويغادرونه ليلًا ... وقد يكون الشبح يعمل وحده، وقد يكونون مجموعة!

تدخل «سليمان» في الحديث لأول مرة فقال: لماذا لا نُبلغ الشرطة؟

ردَّ «تختخ»: أولًا لأن الشرطة هنا ليست أكثر من بضعة جنود، وسوف يرسلون واحدًا منهم، وسوف يسأل عما حدث ... فماذا حدث؟ شبح في الظلام، وثعبان، ولن يستطيع شيئًا حيالهما، كما أن هذا يدعو الشبَح إلى مزيد من الحذر ... ونحن نريده أن يتصرف وفي ذهنه أننا مجموعة من الأولاد لا يخشى خطرها ... وعلى كل حال، إذا تأزَّمتِ الأمور أكثر فلا بأس من إبلاغ الشرطة ... ولكن لننتظر ليلةً أو أكثر لنرى.

وانفَضَّ الِاجتماع، ونزل الجميع إلى الحديقة يَجْرون ويلعبون، وطلب «تختخ» من «محب» أن يتظاهر بالجري ناحية الكوخ، ليجري خلفه ... لعلهما يجدان قريبًا منه شيئًا يساعدهما على حل اللغز.

أما «لوزة» و«نوسة» فقد أخذتا تسيران في الحديقة تتفرجان على العصافير، على حين جلس «عاطف» و«سليمان» يلعبان الشطرنج أمام القصر.

وسمع الصديقان صوتَ مُحرِّك سيارة ... فاتجها إليها، ووجدا «ميزار» يجلس إلى عجلة القيادة، وبعد أن بادلاه التحية قال «ميزار»: إنني ذاهب إلى الفيوم؛ فالسيارة في حاجة إلى إصلاح.

سأله «تختخ»: وهل ستعود اليوم؟

ميزار: لا ... سوف أبقى ليلةً أو ليلتَين هناك؛ فالإصلاح سيستغرق بعض الوقت ... هل تريدان شيئًا من هناك؟

تختخ: لا ... شكرًا لك.

وتحرَّكتِ السيارة مُغادِرة الحديقة، وتابعها الصديقان حتى اختفت، فقال «محب»: إنها فرصة أن نذهب إلى الكوخ ونلتقي بعم «عبود» وحده!

هَزَّ «تختخ» رأسه موافقًا، وسارا معًا في اتجاه الكوخ، ومرةً أخرى عاد «محب» يقول: هذا أحد المشتبه فيهم يغادر مسرح الحوادث.

ووصلا إلى الكوخ، ودار حوله، لم يكن هناك صوتٌ ولا حركة، فتقدَّم «تختخ» ... ودق الباب ... وانتظر قليلًا، ولكن أحدًا لم يرُدَّ ... فعاود الدَّق، ولم تكن هناك إجابة إلا الصمت.

قال «محب»: إن عم «عبود» قد خرج كالمعتاد، ولا أحد يدري أين مكانه، فتعالَ نبحث عنه.

تختخ: ما رأيك في محاولة لاقتحام الكوخ، لا بد أن بالداخل شيئًا يفيدنا في معرفة ما يدور في هذا القصر وحوله.

محب: ولكن كيف والكوخ مغلق؟

ابتسم «تختخ» وقال: لقد رأيت القفل قبل الآن، ولا أظن أنه مستعصٍ على الأدوات التي أحملها.

وأخرج «تختخ» من جيبه كيسًا جلديًّا صغيرًا، وقال لـ «محب»: قف أنت بعيدًا وراقب حتى أحاول.

كان القفل من النوع العادي فاستسلم لأصابع «تختخ» بعد دقائقَ قليلة، ووضع «تختخ» أذنه يتنصَّت، وظل الكوخ صامتًا، فدفع الباب ودخل ثم أغلق الباب خلفه ... كان الظلام يسود الكوخ، وليس هناك سوى خيوطٍ من ضوء الشمس تتخلَّل السقف وجانبًا من الجدار. وبعد لحظات اعتادت عيناه الظلام، وأخذ يُدير بصره يفحص ما حوله ... ودهش؛ فقد وجد أن الكوخ أفضل مما تصوَّر بكثير ... فقد كان هناك «دولاب»، وفراش ومقاعد، وأشياءُ أخرى.

واقترب على حذَر وفتح «الدولاب» بهدوء ... واستطاع برغم الظلام السائد أن يجد بعض الملابس الحريرية المزركشة معلَّقة ... وأنواعًا غريبة من الأحذية ذات الرقبة الطويلة.

وأغلق «الدولاب»، ووجد صندوقًا مغلقًا حاول فتحه فلم يستطع، ووجد عليه كتابة لم يتبيَّنها ... ونظر تحت الفراش ... وبرغم العتمة استطاع أن يرى كيسًا ضخمًا ... وتذكَّر الكيس الذي كان يحمله «عبود» العجوز معه، ومدَّ يده، وأخذ يعبث بفتحة الكيس حتى فتحه ... ومد يده داخله ثم أطلق صرخةً مُدوِّية!

تراجع «تختخ» إلى الخلف مذعورًا ... وتعثَّر في كرسي خلفه، فسقط على الأرض، وارتطم رأسه بها، وأَحسَّ بالدنيا تدور به، ثم فقد وعيه.

وفي الظلام انساب من الكيس ثعبانٌ ضخم، تقدم منسابًا في اتجاه «تختخ»، وفي تلك اللحظة فُتح الباب وظهر على عتبته «محب» الذي سمع صرخة «تختخ» فأقبل مسرعًا ... لم يستطع رؤية شيء في الظلام لفترة، ولكن الضوء الداخل من الباب كشف له الثعبان الضخم وهو يتقدَّم من «تختخ» الراقد على الأرض بلا حَراك.

كانت لحظةً رهيبة لم تمُر «بمحب» طوال حياته ... ولم يشهد لها مثيلًا في مغامراته السابقة كلها ... وبالرغم من الشجاعة التي يمتاز بها «محب» فقد وقف مصعوقًا أمام

هذا العدو الخطير ... وكان الثعبان قد اقترب من «تختخ» وأصبح على بعد سنتيمتراتٍ منه ... وأدرك «محب» الخطر الرهيب الذي يتعرَّض له صديق العمر، فلم يتردَّد، وتقدَّم وسط الكوخ مسرعًا، ثم انحنى على صديقه وحاول حمله ... كان «تختخ» ثقيلًا، فلم يكن في استطاعة «محب» أن يحمله ... وكان الثعبان الضخم قد رفع رأسه إلى أعلى وكأنه يستعد للهجوم ... وتذكَّر «محب» أن الثعابين عادةً لا تُهاجم أحدًا إلا إذا هاجمها، فأخذ يجُر «تختخ» متجهًا إلى الباب ... وعيناه على الثعبان ... وذهنه يعمل سريعًا فيما يجب عملُه إذا هاجمهما الثعبان ... وقرَّر أن الحل الوحيد هو وجود عصًا قوية أو كرسي يُمكِّنه من الدفاع عن صديقه وعن نفسه ... ولكنه استطاع أن يصل بـ «تختخ» إلى الباب بدون أن يهاجمهما الثعبان، وعندما وصل إلى الخارج، ترك «تختخ» وأسرع يُغلِق الباب على الثعبان المرعب، ثم وقف مكانه يلهث وقد تصبَّب عَرق التعب والخوف من جسده كله.

وانحنى «محب» بعد لحظاتٍ على «تختخ» وراعه أن وجد الدم ينزف من ذارعه ... وأدرك الحقيقة المرعبة ... أن الثعبان قد لدغ «تختخ»، وأن حياة صديقه معرَّضة لخطر وشيك ... وهما بعيدان عن القصر ... والقصر بعيد عن العمران ... والسيارة التي كان من الممكن أن تساعد على نقل «تختخ» بعيدة في الفيوم.

كانت لحظة حيرةٍ رهيبة ... ثم سمع «محب» صديقه يئن، ثم فتح عينَيه وأخذ يحدِّق في «محب» لحظات ... ثم هَزَّ رأسه، ومد يده فتحسَّسها في ألم، وقال: «محب»!

ردَّ «محب» في عصبية: «تختخ» ... إن حياتك معرَّضة لخطرٍ شديد ... لقد لدغك الثعبان.

تذكَّر «تختخ» كل شيء فلمعَت عيناه وقال: فعلًا! ثم نظر إلى ذراعه ورأى الدم وقال: الثعبان!

ونهض «تختخ» واقفًا، كأنما أمدَّته كلمة الثعبان بطاقةٍ غير منظورة، فوقف ... وقال: هات منديلكَ سريعًا!

وتذكَّر «محب» في تلك اللحظة أن أبسط قواعد الإسعاف في لدغة الثعبان أو العقرب هي ربطُ ما فوق العضو المصاب حتى لا يصل الدم المسموم إلى القلب.

وبسرعةٍ أخرج منديله، وربط ذراع «تختخ» فوق المعصم ربطًا شديدًا حتى إنه آلم «تختخ».

وترنَّح «تختخ» قليلًا ثم تمالَكَ نفسه، وسارا ناحية القصر وقد أذهلَهما التفكير فيما حدث ... ومصير «تختخ» في الساعات القادمة، وفجأةً شاهدا «لوزة» و«نوسة» تقبلان

عليهما، وقد بدتا كأنهما تحملان أخبارًا هامة ... ولكن رؤية ذراع «تختخ» المربوطة أنستهما كل شيء، فأقبلتا تجريان.

وقالت «لوزة»: ماذا جرى؟ لماذا تربط ذراعك؟

لم يَرُد «محب» ولا «تختخ»؛ فقد أحس كلٌّ منهما أن «لوزة» ستنزعج جدًّا ... ولكن «نوسة» أصرَّت على أن تعرف ... وقال «محب» بصوتٍ متعثر: لقد لدغ الثعبان «تختخ»!

صاحت «لوزة» في فزع: الثعبان الأعمى؟!

أمَّا «نوسة» فأمسكَت بذراع «تختخ» وفكَّت الرباط الذي حوله لترى اللدغة، ونظَرتْ إليها جيدًا ... وأسرعَت تخرج منديلها من جيبها، ومسحَت الدم عن الجرح وأخذَت تتفحَّصه لحظاتٍ ثم ابتسمت.

كانت ابتسامةً في غير موعدها ... ولكن سرعان ما جاء التفسير؛ فقد قالت «نوسة»: لا تخشَ شيئًا!

محب: كيف لا يخشى ... وهو معرَّض للموت في دقائق!

نوسة: إنكما لم تلاحظا شيئًا هامًّا ... إن الجرح المتخلِّف عن الثعبان السام يختلف عن الثعبان غير السام!

«لوزة» (في فزع): هل أنتِ متأكدة؟ إن المسألة تتعلق بحياة «تختخ»!

«نوسة» (في هدوء): طبعًا متأكدة، وقد قرأتُ هذا في أكثر من كتاب.

وبدأَت الدماء تعود إلى وجه «تختخ» و«محب» ومضت «نوسة» تقول: إن الثعبان السام يترك مكان لدغته ثقبَين صغيرَين مكان النابَين اللذَين ينزل منهما السم ... أما الثعبان غير السام فيترك خطَّين من الثقوب مكان أسنانه الكثيرة ... وهذا واضح في ذراع «تختخ» ... فلا تخشيا شيئًا ... إننا فقط يجب أن نغسل الجرح ونُطهِّره ... ولن يحدث شيء ...

ابتسم «تختخ» وقفز «محب»، وأسرع الأربعة إلى القصر، وتم غسل الجرح بالماء الساخن، ووُضِع عليه «الميركروكروم». واجتمع الأصدقاء حول فراش «تختخ» وأخذوا يناقشون المعلومات التي حصَلوا عليها ... لقد بدأَت أشياء كثيرة تتضح ... واقتربوا من حل لغز الثعبان الأعمى! وقد حضر «عاطف» الاجتماع بعد أن ترك «سليمان» الذي ذهب لمقابلة جده.

الضيف الغريب

قال «لوزة»: لقد وقعَت أحداثٌ كثيرة ... وعندنا استنتاجات ... ومن المهم الآن أن نضع كل هذه في صورةٍ واحدة لنتمكَّن من استكمال حل اللغز العجيب.

قال «عاطف» معلقًا: أي لغز؟! لقد انتهى اللغز، فقد عرفتُ حكاية الثعبان الأعمى ... إنه ثعبانٌ حقيقي يحتفظ به شخصٌ ما لإرهاب الناس!

لوزة: ومن هو هذا الشخص يا «عاطف»؟

لم يستطع «عاطف» الإجابة ... فتردَّد قليلًا ثم قال: شخص من الأشخاص المحيطين بنا!

لوزة: أي واحدٍ فيهم؟

محب: إننا لم نجتمع لهذا الحوار الذي لا معنى له ... إننا نريد بسرعة أن نضع صورةً عامة للموقف كما قالت «لوزة»، وأعتقد أن «تختخ» برغم الحادث الأخير الذي تعرَّض له هو أكثرنا قدرة على وضع هذا التصوُّر.

بدأ «تختخ» الحديث فورًا فقال: من المؤكَّد وجود ثلاثةِ عناصرَ هامة في الأحداث التي تدور داخل هذا القصر وخارجه ... أولًا أن هناك جوهرةً في القصر. ثانيًا أن هناك شخصًا يعرف مكانها. وثالثًا أن الثعبان ليس إلا وسيلةً لإرهابِ مَن في القصر للابتعاد عن الجوهرة خوفًا من انتقام الثعبان كما تقول الأسطورة، وقد عَرفْنا الآن حقيقة الثعبان ... إنه ليس ثعبانًا سامًّا ولكنه بالطبع مخيف ... وبَقِي كما تقول «لوزة» أن نعرف من هو الشخص الذي يُحرِّك كل هذه الأحداث!

نوسة: ليس إلا واحدًا من اثنَين ... إما «عبود» الجنايني العجوز وإما «ميزار» السائق ... فكلاهما يسكن في الكوخ حيث وجد «تختخ» الثعبان!

عاطف: ولماذا لا يكونان هما معًا مشتركَين في هذا لمحاولة الحصول على الجوهرة؟ لا تَنسَوا أنهما قريبان، وأن «عبود» هو الذي قدَّم «ميزار» للأسرة ليعمل سائقًا لها!

تختخ: هذا كلامٌ معقول جدًّا!

نوسة: هل تعتقد أنهما سيتراجعان عن خطَّتهما بعد أن يعودا أو يعود أحدهما ويعرف أننا اكتشفنا حقيقة الثعبان؟

تختخ: إنني أتصوَّر أنهما سيتحرَّكان بسرعة قبل أن تنكشف حقيقتهما!

محب: وهل يتحرَّكان بدون الثعبان؟ أليس هو الوسيلة التي كانا يستخدمانها في مغامرتهما المخفية!

تختخ: إنهما لن يتردَّدا — بعد أن بذلا كل هذا المجهود — في أن يفعلا كل شيء في سبيل الوصول إلى الجوهرة!

نوسة: أعتقد أنه من الأفضل ألا يُعرف أننا اكتشفنا حقيقة الثعبان، وإلا فسوف يُوجِّهان انتقامهما إلينا!

ودق الباب في هذه اللحظة ودخل «سليمان»، وقال وهو يبتسم: هناك ضيفٌ قادم للانضمام إلينا، وسيقضي ليلةً هنا ثم يغادرنا في الصباح! لقد جاء برسالةٍ من والدتي إلى جدي، وعلينا أن نستقبله في المساء!

قال «تختخ»: آسف … سوف لا أشترك معكم في لجنة الاستقبال هذه؛ فإنني أريد أن أخلو إلى نفسي قليلًا!

ولفت الجرح الذي في ذراع «تختخ» بصر «سليمان» فقال: ما هذا؟ هل جرحتَ نفسك؟

وانتظر الأصدقاء أن يروي «تختخ» لـ «سليمان» ما حدث. ولكن «تختخ» ابتسم قائلًا: بسيطة … لقد جرحَني غصن شجرة في أثناء تجوُّلي في الحديقة!

انصرف «سليمان» قائلًا: سأذهب للإشراف على إعداد غرفة للضيف، ثم نلتقي في المساء لاستقباله!

تختخ: وكيف يصل والعربة في الفيوم؟

سليمان: لقد تحدَّث تليفونيًّا من الفيوم، وقال إنه استأجر عربةً خاصة لتوصيله إلى هنا!

بعد انصراف «سليمان» … قال «محب» مندهشًا: لماذا لم تقل له على كل ما حدث؟

تختخ: لا أدري … لقد خشيتُ أن يقول لأحد من سكان القصر أو من الفلاحين وسرعان ما ينتقل الكلام إلى المجرم أو المجرمين، وقد يدفعهما هذا إلى الحذر!

وطلب «تختخ» من الأصدقاء أن يتركوه قليلًا ليرتاح، وبعد أن خرجوا أخرج دفتر مذكراته وأخذ يتصفَّحه، ويقرأ كل ما كتبه عن المغامرة الأخيرة، ثم أضاف بضع ملاحظاتٍ أخرى، واستلقى على الفراش، وسرعان ما استغرق في النوم.

عندما استيقظ «تختخ» كان الظلام قد أرخى سُدوله، فأدرك أنه نام أكثر من اللازم، وبرغم أنه أحس بالكسل بعد هذا النوم الطويل، فذهنه كان صافيًا.

قام من فراشه، وسمع الأصدقاء في صالة المنزل يضحكون ويلعبون، فارتدى ثيابه ونزل … لم يكن «سليمان» موجودًا، وكان الأصدقاء قد غادروا الصالة إلى شرفة القصر الواسعة المطلة على الحديقة، فذهب إليهم.

قدَّمتْ «نوسة» تقريرًا سريعًا، فقالت: وأنت نائمٌ ظهر عم «عبود» يحوم حول القصر … كان واضحًا أنه يبحث عن شيء بين أشجار الحديقة وأعشابها، وطبعًا لم نُخبره بما حدث، وقد حاوَلْنا استدراجه في الحديث، ولكنه ظلَّ يُردِّد بضع كلماتٍ بلهاء.

قاطعَها «تختخ» قائلًا: مثل ماذا؟

نوسة: الثعبان … الكنز … الجوهرة … أبي المسكين!

وقال «محب»: حاولتُ أن أجذبه إلى القصر لأتحدث معه، ولكنه فرَّ مني، وغاب بين الأشجار … ربما في اتجاه الكوخ على الأغلب!

نوسة: وظلَلْنا في انتظار الضيف، ولكنه لم يحضر، فذهبنا إلى مكتبة القصر حيث قضينا بعض الوقت نتفرَّج على مجموعةٍ عظيمة من الكتب والصور التذكارية … وفي أثناء وجودنا في المكتبة حضر الضيف، وقد ذهب «سليمان» معه إلى الغرفة التي أُعدَّت له.

وظهر «سليمان» في هذه اللحظة، وانضم إليهم قائلًا: شيءٌ مؤسف، لقد مشى الضيف كثيرًا حتى وصل إلى القصر!

عاطف: ألم يقل إنه سيحضُر في سيارة؟

سليمان: لقد أُصيبت السيارة بخللٍ طارئ على مسافةٍ غير بعيدة من القصر، واضطُر إلى حمل حقيبته والحضور إلى القصر مشيًا … كان متعبًا فصَعِد على الفور إلى غرفته، وقد حدَّدتُ موعدًا له الساعة التاسعة والنصف ليلًا لمقابلة جدي، بعد أن يتناول الأدوية مباشرة، وبعدها سوف يأوي الضيف إلى فراشه … لقد كان التفاهم معه صعبًا للغاية؛ فهو ألماني الأصل، ويتحدَّث إنجليزيةً مكسَّرة … ولا أدري كيف يتحدث إلى جدي!

قال «تختخ»: أريد أن أذهب إلى المكتبة؛ فقد نمت طول النهار تقريبًا، ولا أظنني أستطيع النوم قبل ساعةٍ متأخرة من الليل.

وقبل أن ينصرف «تختخ» إلى المكتبة قال للأصدقاء: أُحِس أن الليلة هي أخطر وأهم الليالي التي قضيناها هنا ... خذوا حِذْركم ... أريد مراقبة غرفة الأستاذ «عفيفي» جيدًا ... لا تدَعوها تغيب عن بصركم!

وانصرف «تختخ» مع «سليمان» إلى غرفة المكتبة، فطلب الاطلاع على الصور التذكارية ... وأخذ «سليمان» يتصفَّح معه الألبومات ... هذه صورة جدِّي وهو شاب ... الذي يقف بجانبه هو عم «عبود» ... طبعًا في شبابه ... وهذه صورة أبي ... وأمي ... وجدي وهو يصطاد الطيور في بحيرة قارون، وهذه جدَّتي وهي تلبس مجموعة من مجوهراتها ...

وانقضى الوقت و«تختخ» يتفرَّج و«سليمان» يشرح: وهذه صورة جدِّي قبل أن يُصاب بالشلل ومعه عم «عبود»، لقد كانا دائمًا معًا ... فهي ليست علاقة بين سيد وخادم ... إنها علاقة بين صديقَين!

وفي التاسعة والنصف استأذن «سليمان» في الذهاب إلى الضيف، وبقي «تختخ» وحده، فانتظر لحظاتٍ ثم فتح باب المكتبة الذي يُطل على الحديقة، وانصرف وأغلَق الباب خلفه ... كان يعلم أن الثعبان طليق ... وقد يهاجمه مرةً أخرى، ولكنه لم يتردَّد في الخروج، وأسرع إلى الكوخ ... كانت في ذهنه فكرةٌ معينة ... وكان يعتقد أن في الكوخ مفتاحَ كلِّ هذه الأسرار والألغاز.

ووصل إلى الكوخ ... كان مغلقًا وعليه القفل ... ومعنى ذلك أن عم «عبود» قد عاد، وأنه عرف أن شخصًا أو أشخاصًا قد دخلوا الكوخ.

واقترب «تختخ» من الكوخ في حذرٍ شديد ... ثم وضع أُذنه على فتحة الباب وأخذ ينصت في اهتمام ... ولكن لم يكن هناك أي صوتٍ ينبئ عن وجود شخص في الكوخ ... فانسحب بهدوء، ووقف بعيدًا ينتظر.

مضت فترةٌ طويلة بدون أن يحدُث شيء ... وأَحسَّ «تختخ» أن الفكرة التي راودَتْه ليست صحيحة ... فانصرف في طريقه إلى القصر ... وفي تلك اللحظة سمع صوت صرخةٍ تصدُر من القصر ... صرخة رعبٍ واضحة، لم يشُكَّ لحظةً أنها صادرة من «لوزة» أو «نوسة» ...

وأسرع يجري في اتجاه القصر ... وعندما وصل كان باب القصر مفتوحًا والصالة مضاءة فدخل، ووجد الأصدقاء جميعًا يقفون في مكانٍ واحد ... و«محب» يمسك ب «لوزة» ويُحاول تهدئتها.

وما كادت «لوزة» ترى «تختخ» حتى أسرعَت إليه، وألقت بنفسها على صدره وقالت: الثعبان ... إنه في القصر!

قال «تختخ» وهو يربتُ عليها: لا تخافي ... إنه غير سام ... أين «سليمان»؟

عاطف: لقد كان معنا الآن ... فقد طلب الضيف أن يبقى مع الأستاذ «عفيفي» وحده ليُبلغه رسالة من ابنته، وأتى «سليمان» ليجلس معنا، ولما شاهد الثعبان أسرع لإحضار بعض الفلاحين لمحاصرة الثعبان داخل القصر!

تختخ: وأين اتجه الثعبان؟

نوسة: لقد اتجه إلى المطبخ!

تختخ: يجب علينا إنذار السيدة العجوز التي تُشرِف على المطبخ، فسوف ترتعب إذا رأته.

ومضى الأصدقاء وهم يتلفَّتون حولهم ناحية المطبخ، وتَذكَّر «تختخ» الضيف، ألم تلفِت نظره الصرخة، لماذا لم ينزل إذن؟

وقال «تختخ» للأصدقاء: سأصعد إلى الدور الثاني، كونوا على حذَر!

وصعد «تختخ» مسرعًا إلى الدور الثاني ... ودق باب الأستاذ «عفيفي» فلم يجب أحد، فلم يتردَّد وفتح الباب ... وكم كانت دهشته عندما وجد الرجل العجوز مقيَّدًا مُكمَّم الفم ... وعيناه تنظران إلى الحائط!

لم يكن هناك أحد في الغرفة ... ونظر «تختخ» إلى حيث تتجه نظرة الرجل المشلول ... ووجد في الجدار خزانةً سرية، مفتوحة ... وفارغة ... وتَذَكَّر النظرة التي رآها عندما زاروه. كانت تتجه ناحية الخزانة عندما تحدَّثوا معه عن الجوهرة والثعبان الأعمى ... لقد كان استنتاجه صحيحًا، وعَرفَ ساعتها أن الخزانة في هذا المكان، وأن الجوهرة بها ... ولكنه للأسف لم يستفد من هذه المعلومة.

ثلاثة في واحد

أسرع «تختخ» يفُك وثاق الرجل المشلول ... وسمعه يقول: الضيف ... الضيف ... أسرعوا!

جرى «تختخ» إلى غرفة الضيف، كانت مضاءة، ونافذتها مفتوحة ... وفارغة ... ونظر «تختخ» من النافذة، وشاهد سلمًا من الحبال موضوعًا على حافة النافذة وأدرك كل شيء.

عاد «تختخ» إلى الدهليز ونادى الأصدقاء، ثم عاد إلى غرفة الأستاذ «عفيفي» فوجده مضطجعًا على فراشه، وقد بدا على وجهه الألم والحزن، وكان الأصدقاء قد وصلوا، فقال «تختخ»: تبقى «نوسة» و«لوزة» مع الأستاذ «عفيفي» للعناية به ... ويأتي معي «محب» و«عاطف» و«سليمان».

ونزل الأولاد الثلاثة السلم مسرعين، وقال «تختخ» وهو يفتح باب القصر وينطلق إلى الخارج وهم خلفه: لقد وقعَت الحادثة منذ دقائقَ قليلة ... وقد نلحق بالضيف قبل أن يهرب.

سليمان: ماذا حدث بالضبط؟

تختخ: حدث أن الضيف كان يخدعُك ... فهو لم يأتِ من طرف والدتك، إنه لص، دخل بدعوى أنه ضيف، ثم طلب مقابلة جدك على انفراد، ثم كمَّمه وكتَّفه وسرق الجوهرة من الخزينة، ولا بد أن مفاتيحها موجودة في الغرفة نفسها!

سليمان: إنها مع جدي، ولكن لا نعرف أين!

تختخ: ولكن كيف تُصدِّق رجلًا غريبًا يقول لك إنه قادم من طرف والدتك بدون أن تتأكَّد منه وترى الخطاب؟

سليمان: لقد كتبَت لي والدتي منذ أيام تقولُ إن صديقًا ألمانيًّا سوف يزورنا للحديث مع جدي عن المجوهرات التي عنده؛ فهو يريد أن يشتريها لقيمتها التاريخية ... وقد قال لي الرجل هذا الكلام فصدَّقتُه!

محب: لعله الضيف فعلًا ... وعندما شاهد المجوهرات قرَّر أن يسرقها بدلًا من أن يشتريها!

تختخ: هل تتصور رجلًا ألمانيًّا يقوم بسرقة في مصر، ثم يتمكَّن من الهرب بها خارج مصر؟ ... صعب جدًّا ... فمن السهل القبض عليه ما دام غريبًا عن البلد ولا يعرف طرقاتها ومسالكها!

كانوا يتحدَّثون وهم يَجْرون فقال «محب»: إذن فأنت تعتقد ...

وقبل أن يُتمَّ جملته قال «تختخ»: نعم ... أعتقد أنه لصٌّ من هذه المنطقة ... بل من الجوار يعرف قصة المجوهرات، بل إنه الرجل الذي يُحرِّك الثعبان.

وتباطأ «تختخ» في جريه ثم قال: بل يعرف قصة الرسالة أيضًا!

وتباطأ الأصدقاء معه ... ثم توقَّف «تختخ» قليلًا وقال يسأل «سليمان»: من الذي يعرف حكاية الرسالة التي وصلَتْك؟

سليمان: كلٌّ من في المنزل تقريبًا ... عم «عبود» و«ميزار» وناظر العزبة والفلاحون ... ومديرة المنزل! لقد أخبرتُهم جميعًا ليستعدوا لاستقبال الضيف عندما يحضر!

تختخ: إنني متأكد أن اللص واحدٌ من هؤلاء؛ فقد أدرك أنكم في انتظار الضيف، فقرر أن يحُل محلَّه، ثم يقابل جدَّك وينفرد به، ويستولي على الجوهرة!

سليمان: ولكن جدِّي يعرف هؤلاء جميعًا!

تختخ: لعله متنكر.

محب: أو لعله استخدم شخصًا آخر سواه ... فمن الأفضل للصِّ أن يتفق مع شخصٍ آخر على تمثيل دور الضيف، وبعد أن يحصل على المجوهرات يقتسمان ثمنها معًا!

تختخ: إن اللص يعمل وحده، وبخاصة في عملية كهذه؛ فمن أين له أن يضمن أن شريكه لن يخونه، ويأخذ الجوهرة ويهرب ... إنني أُرجِّح أنه يعمل وحده!

سليمان: والآن إلى أين نتجه؟ إننا نسير على غير هُدًى!

تختخ: إننا سنذهب إلى الكوخ!

عاطف: وماذا سنجد هناك؟

تختخ: لا أدري ... ولكن ربما وجدنا شيئًا يهدينا إلى صاحب أسطورة الثعبان الأعمى ... إلى المجرم الذي سرق الجوهرة أو المجوهرات التي كانت في الخزينة!

واتجه الأصدقاء الأربعة ناحية الكوخ، وسرعان ما وصلوا هناك. كان غارقًا في الظلام ... وتقدم «تختخ» فوضع أُذنه على فتحة الباب وأخذ يُنصِت باهتمام، ولكنه لم يسمع شيئًا على الإطلاق.

عاد «تختخ» إلى الأصدقاء قائلًا: ليس أمامنا الآن إلا العودة إلى القصر؛ فليس هناك أحد في الكوخ!

وعاد الأصدقاء يشُقُّون طريقهم وسط الأشجار عائدين إلى القصر، وعندما وصلوا إلى هناك صَعِدوا للاطمئنان على المريض، وكانت «نوسة» و«لوزة» تجلسان بجواره.

أشارت «لوزة» إلى «تختخ» أن يتبعها خارج الغرفة، وعندما أصبحا وحدهما قالت: «تختخ» ... هناك شيءٌ سمعتُه في الحديقة كنتُ أريد أن أقوله لك، وقد سمعتُه أنا و«نوسة» في أثناء تجوُّلنا في الحديقة اليوم، ولكنَّ إصابتك بلدغة الثعبان أنستنا كل شيء، ثم تلاحقَت الأحداث بعد ذلك، فلم أجد وقتًا لإبلاغك ...

وسكتَت «لوزة» لحظاتٍ تستردُّ أنفاسها ثم قالت: عند ساقيةٍ مهجورة في طرف الحديقة سمعنا صوتًا يُشْبه الأنين يصدُر منها. وقد أفزعَنا الصوت ... وحاولنا معرفة حقيقته ولكننا لم نتمكَّن!

قال «تختخ» باهتمام: ما هو أقرب شيء إلى طبيعة هذا الصوت؟

لوزة: لستُ متأكدة، ولكن يبدو كصوت شخصٍ يحاول الاستغاثة ولا يستطيع!

أخذ «تختخ» ينظر إلى «لوزة» وقد دارت عجلات التفكير في رأسه بسرعةٍ خارقة ... ثم قال بعد لحظات: إنها معلوماتٌ هامة جدًّا يا «لوزة»، ولو سمعتُها بالنهار لتغيَّرتْ أشياءُ كثيرة!

لوزة: ماذا تقصد؟

تختخ: لا وقت للشرح ... ولكن هناك فكرة نبتَت في رأسي منذ فترة، وها أنا ذا أجد في هذه المعلومات ما يؤكِّد صحة هذه الفكرة ... هيا بنا ندخل.

ودخلا إلى غرفة المريض وأشار «تختخ» إلى «محب» وإلى «سليمان» أن يتبعاه، وعندما خرجا قال «تختخ»: «سليمان»، هل هناك ساقيةٌ مهجورة في طرف حديقة القصر؟

سليمان: نعم ... إنها بعيدة، ولا أحد يذهب عندها؛ فللأسف تُروى بعض الروايات على ألسنة الفلاحين أنها موطنُ الثعبان الأعمى!

تختخ: وهل نستطيع أن نصل إليها في الظلام؟

سليمان: طبعًا!

تختخ: إذن هيا بنا!

سليمان: إلى أين؟

تختخ: إلى الساقية المهجورة!

سليمان: لماذا؟

تختخ: إنني أتوقَّع أن أجد هناك ما يُفسِّر كل المُعمَّيات التي ندور حولها، إنها ستكشف عن صاحب الثعبان الأعمى … سارق الجوهرة!

وأخذ الأربعة بطارياتهم الصغيرة، وانطلقوا إلى الساقية المهجورة … عندما وصلوا كان الظلام يغمُر كل شيء، فأطلقوا ضوء كشافاتهم، وفجأةً انطلق طلقٌ ناري في الصمت المخيِّم على المكان، وطارت بطارية «تختخ» من يده، وصاح «تختخ»: انبطحوا على وجوهكم!

وألقى الأربعة بأنفسهم على الأرض، وهمس «تختخ»: إن عدونا متيقِّظ جدًّا … وهو شديد المهارة في الرماية!

وساد الصمت بعد أن أطفأ الأصدقاء بطارياتهم … ثم انطلقَت رصاصةٌ أخرى دوَّت فوق رءوسهم فقال «سليمان»: هيا نعود إلى القصر بسرعة ولا داعي لهذه المغامرة، إن الرصاصة الثالثة قد تصيب واحدًا منا!

تختخ: عودوا أنتم إلى القصر، وسأبقى أنا!

محب: لا … لن تبقى وحدك … سنبقى معك! أو نمضي معًا!

تختخ: من الأفضل إذن أن نمضي.

وأخذ الأربعة يزحفون متراجعين في الطريق إلى القصر … وبعد أن قطعوا مسافةً وهم يزحفون، وقفوا وساروا مسرعين … وبعد بضعِ دقائقَ قال «تختخ»: إن عدُوَّنا أشرس مما تصوَّرتُ … إنه ليس لصًّا فقط، ولكنه قاتل أيضًا.

محب: وماذا نفعل الآن؟

تختخ: هل تُصدِّقوني إذا قلت لكم؟ …

عاطف: نُصدِّق ماذا؟

تختخ: إنني عرفتُ اللص!

وفي الظلام انطلقَت آهات الدهشة وقال «عاطف»: لعلك رأيتَه في الظلام … أو جاء العصفور وقال لكَ كما يقولون للأطفال الصغار!

تختخ: إنك لا تكُفُّ عن الهزار … ولكن الحقيقة أنني عرفتُه!

سليمان: من هو؟

مرَّت لحظةٌ صمت ثم قال «تختخ»: لننتظر قليلًا!

محب: إلى متى؟

تختخ: إلى الصباح … ولكن بشرط ألا ننام، وإلا أفلت منا إلى الأبد!

ووصلوا إلى القصر ... كانت «نوسة» و«لوزة» تقفان؛ فقد سمعتا صوت الطلقَين الناريَّين ... وأحسَّتا أن شيئًا غير عادي يحدُث ... وخافتا أن يكون أحد الأصدقاء قد أصابه مكروه ... فلما ظهر الأصدقاء الأربعة أسرعتا إليهم وقالت «نوسة»: ماذا حدث؟

فقال «تختخ»: لا شيء ... ولكن انتقلنا من مرحلة الدهاء إلى مرحلة العنف!

محب: ألا نتصل برجال الشرطة؟

تختخ: لو اتصلنا بهم لأفلتَ المجرم إلى الأبد ... فسوف يعرف حُضورهم ويهرب ويختفي!

محب: والحل؟

تختخ: أن ننتظر ونرى!

عاطف: ننتظر مَن؟ ونرى ماذا؟

تختخ: ننتظر المجرم ... ونرى ما سيفعل ... والآن اذهبوا جميعًا إلى أَسِرَّتكم، لقد نمتُ بما فيه الكفاية، وأستطيع أن أظل ساهرًا فترةً طويلة!

محب: سأبقى معك!

سليمان: وأنا أيضًا!

ابتسم «عاطف» وقال: وأنا ... ولكن سأنام وأنا جالس!

وبرغم توتُّر الموقف ضحك الأصدقاء جميعًا، ثم صَعِدَت «نوسة» و«لوزة» إلى فوق، واستأذن «سليمان» لحظاتٍ وذهب للاطمئنان على جده!

وقال «محب»: لماذا لا تخبرنا باسم الشخص الذي تفكِّر فيه؟

تختخ: إنه ليس شخصًا واحدًا ... إنه ثلاثةُ أشخاص ...

محب: ثلاثة؟

تختخ: نعم ... ثلاثة في واحد ... أو واحد في ثلاثة!

٣ × ١

قال «عاطف»: لقد اشتركتُ معك في عشرات الألغاز يا «تختخ» ولكن هذه أول مرة تصبح أنت نفسك لغزًا!

تختخ: إنني أريد مفاجأتكم ...

وفجأة قفز «تختخ» واقفًا وقال: الثعبان ... لقد نسيناه! إنه قد يؤذي «نوسة» أو «لوزة» أو الشغالة «رابحة» ... إنها تبيت في المنزل كما تعرفون!

وأسرع الثلاثة إلى داخل القصر وقال «تختخ»: أضيئوا الأنوار كلها!

وأُضيئت الأنوار وعاد «تختخ» يقول: كونوا على حذر!

وتسلَّحوا جميعًا ببعض العِصِي، وحضر «سليمان»، فانضَم إليهم وبدءوا البحث.

واتجهوا إلى المطبخ وقال «تختخ» لـ «رابحة» الشغالة: هل عندك حمَامٌ حي؟

قالت: نعم ... ولكن ليس هنا ... إنه فوق السطوح!

تختخ: اذهبي فورًا وأحضري حمامة، واربطي أجنحتَها وأرجُلَها.

وصَعِدتْ «رابحة» مسرعة لتنفيذ تعليمات «تختخ» الذي قال: نتحرك جميعًا معًا ... وإذا شاهدنا الثعبان فيكفي الإشارة إليه بالعِصِي حتى ندفعه إلى غرفة من الغرف ونغلق عليه الباب.

وأخذوا يبحثون تحت الكراسي في الصالون الواسع ... ثم في المكتبة ... واستخدموا بطارياتهم للبحث عن الثعبان في الأركان المظلمة.

وعادت «رابحة» بعد قليل ومعها الحمامة، فأخذها «تختخ» ووضعها في وسط الصالة، ثم طلب تخفيف الضوء، وقال: والآن سنصعد جميعًا السُّلم، ونقف في انتظاره.

وقف الأصدقاء جميعًا ينظرون إلى الصالة ... ومضى الوقت دون أن يظهر الثعبان فقال «عاطف»: لعله صائم!

ولكنَّ أحدًا لم يضحك وقال «تختخ»: إن الثعابين تُحب الحمَام ... وهذا الثعبان لم يأكل منذ فترة، وسيظهر حتمًا.

ومضَت الساعات واقترب الفجر ... وفجأةً ظهر الثعبان من تحت أحد المقاعد الكبيرة القديمة فقالت «رابحة»: إن بطن هذا المقعد فارغة ... لقد اختبأ فيها طول المدة.

ظهر رأس الثعبان أولًا ... ثم انساب جسده الرشيق على السجادة، ونظر حوله، وأطلق لسانه المتشعِّب ... ثم اتجه إلى الحمامة في هدوء بدون أن يُحدث أي صوت ... وعندما وصل إليها فتح فمه فإذا به يتسع ويتسع حتى أصبح أضعاف حجمه، ثم ابتلع الحمامة في بساطة ... وفي تلك اللحظة سمع الأصدقاء صوتَ موتور سيارةٍ تتوقف ... والتفت «تختخ» إلى «سليمان» قائلًا في صوت حازم: اطلب الشرطة الآن!

سليمان: لماذا؟

تختخ: اطلبهم تليفونيًّا، وارْجُهم أن يأتوا بأسرعِ ما يمكن!

ولم يجد «سليمان» بدًّا من الإسراع إلى التليفون، وقال «تختخ»: والآن أيها الأصدقاء سيدخل الرجل الذي روَّج لأسطورة الثعبان الأعمى ... لص الجوهرة!

عاطف: الرجل الثلاثة؟

تختخ: نعم ... الرجل الثلاثة.

ومضت فترة ثم عاد «سليمان» يقول: لقد تحدَّثتُ مع الشاويش «أمين» في شرطة «سنهور البحرية» وهي قريبةٌ منا جدًّا، وقلت لهم إن جدي الأستاذ «عفيفي» يطلبهم لوجود لص في القصر.

قال «تختخ»: عظيم ... والآن قل لي يا «سليمان» ... ماذا كان يعمل «ميزار» قبل أن يلتحق بالعمل عندكم؟

سليمان: كان يعمل في سيرك!

تختخ: تمامًا كما توقَّعتُ!

ولم يكَد «تختخ» ينتهي من كلامه حتى سمعوا صوت أقدامٍ تقترب من باب القصر الذي تركَه الأصدقاء مفتوحًا، ثم ظهر «ميزار» وعلى شفتَيه ابتسامة.

أدار «ميزار» النظر في المشهد الذي حوله ثم صاح بالأصدقاء: ماذا حدث؟ ما هذا؟

تختخ: كما ترى ... الثعبان الأعمى!

ميزار: الأعمى؟

تختخ: نعم ... كما يقولون.

كان «ميزار» يقترب من الثعبان بدون خوف، فقال «عاطف»: خذ حذركَ إنه سيلدغك!

ورفع «ميزار» وجهه إليهم وقال: لقد شاهدتُ أضواء القصر فلفتَت نظري وجئتُ لأُودِّعكم.

قال «سليمان»: ألم تكن في الفيوم؟

ميزار: نعم ... ولكن إصلاح السيارة انتهى، وقد جئتُ لتسليمها فقد وجدتُ عملًا آخر.

همس «تختخ» لـ «سليمان»: تحدث معه أطول فترة ممكنة!

سليمان: ولكن لماذا تتركنا؟

ميزار: لقد وجدتُ عملًا مجزيًا، وقد أُغادر «مصر» لفترة!

كان ذهن «تختخ» يعمل بسرعة، كان يريد كسب الوقت حتى يصل رجال الشرطة ... فلو غادر «ميزار» القصر فلن يَرَوه مرةً أخرى ... «ميزار» اللص ... صاحب الثعبان.

قال «تختخ»: وهل تتركنا وحدنا مع هذا الثعبان؟ إننا خائفون جدًّا منه!

ميزار: إنه غير مؤذٍ على ما أعتقد!

تختخ: كيف؟ لقد عضَّني!

أفلتَت من فم «ميزار» الجملة التي كان ينتظرها «تختخ» لتؤكد ظنونه ... قال «ميزار»: إذن أنت الذي دخلتَ الكوخ هذا الصباح!

ولم يتمالك «تختخ» نفسه من الابتسام ... فقد وقع «ميزار» الذي تنبَّه إلى ما قال، ولكنه أدرك أن هذا حدث بعد فوات الأوان ...

وتقدَّم «ميزار» مسرعًا من الثعبان، ودار حوله ثم أمسكه بطريقةٍ فنية، وبدأ يتراجع إلى الخلف!

قال «تختخ» محاولًا كسب الوقت: أين عم «عبود»؟

لم يرُدَّ «ميزار»، ولكنه رفع رأسه في نظرةٍ مباغتة ورمق «تختخ» بنظرةٍ حافلة بالحقد.

قال «تختخ»: لقد انكشف كل شيء يا «ميزار»، فنحن نعرف مكان عم «عبود» حيث خبَّأتَه ... وعرفنا حكاية الزائر الغريب ... الذي لم يكن سواك!

قال «ميزار» من بين أسنانه: فلتعرفوا ما شئتم ... لقد حصلتُ على الجوهرة، ولن تَرَوني بعد الآن ...

واستدار إلى الخلف، ولكن في تلك اللحظة دقَّت أقدامٌ ثقيلة أمام القصر، وظهر في الضوء ثلاثةٌ من رجال الشرطة يحملون أسلحتهم.

صاح «تختخ»: اقبضوا عليه!

واستدار «ميزار» إلى الرجال الثلاثة ورفع الثعبان في وجوههم، ولكن «تختخ» صاح: إنه غير سامٍّ ... لا تخافوا!

ورفع الشاويش «أمين» مسدَّسه في وجه «ميزار» وقال: لا تحاول الهرب!

واقترب الرجال الثلاثة من «ميزار»، وقال الشاويش «أمين»: اجلس على هذا الكرسي، وأبقِ الثعبان معك.

ثم رفع وجهه إلى «سليمان» قائلًا: ما هي الحكاية؟ هل سرق الثعبان؟

قال «تختخ»: لا ... لقد سرق جوهرةً ثمينة من خزينة جدي الأستاذ «عفيفي» وسأشرح لكم القصة كلها.

ذهبَت «رابحة» لإعداد الشاي، ثم ظَهرتْ «نوسة» و«لوزة» وانضمَّتا إلى الأصدقاء، وجلسوا جميعًا في الصالون الواسع وقال «تختخ»: إن القصة طويلةٌ، وسأختصرها بقَدْر ما أستطيع.

وصمت لحظات يستجمع أفكاره ثم قال: إن «ميزار» قريبٌ لـ «عبود» جنايني هذا القصر العجوز، وقد تربَّى هنا وهو طفل وسمع بقصة الجوهرة والثعبان الأعمى ... وجاء إلى هنا سيرك و«ميزار» صغيرٌ، فانضم إليه، وفي السيرك تمرَّن على ترويض الثعابين وتعلم فن التنكُّر ... ثم قرَّر أن يعود إلى القصر ويحاول سرقة الجوهرة، فأحضر ثعبانه المدرَّب معه، وطلب من عم «عبود» إلحاقه بالأُسرة كسائق سيارة للأستاذ «عفيفي»، وبدأ يطلق الثعبان حول القصر ... ويُروِّج لقصة الثعبان الأعمى، حتى أخاف أكثر العاملين في القصر فرفضوا البقاء فيه ليلًا ... وعندما وصلَت قصته إلى ذروتها قرَّر أن الوقت قد حان لسرقة الجوهرة، التي عرف مكانها ومكان مفاتيح الخزينة من «عبود» العجوز، ثم استطاع أن يُخفي «عبود» في الساقية المهجورة، وبالتنكُّر بدأ يظهر في شكل عم «عبود» ويحاول سرقة الجوهرة في هذا الشكل حتى يُلقي التهمة على «عبود» ... وكان يظهر أحيانًا في شكل «ميزار»، وأحيانًا في شكل «عبود»، ولعل «سليمان» و«رابحة» سيذكُران أنهما لم يريا «عبود» و«ميزار» في وقتٍ واحد معًا أبدًا منذ شهر تقريبًا ... أي منذ أخفى «ميزار» «عبود» في الساقية المهجورة.

كانت العيون كلها تتابع «تختخ» وهو يروي القصة المدهشة: وعندما حضرنا نحن إلى القصر قرَّر الإسراع في تنفيذ خطته، وفي الليلة التالية لحضورنا دخل القصر، وذهب إلى غرفة الأستاذ «عفيفي»، ولكن لسوء حظه كانت «لوزة» أَرِقة، فسمعَت خطواته وانطلقَت خلفه، وأسرع بالهرب بعد أن أطلق الثعبان أمام القصر حيث شاهدَتْه «لوزة»!

وسكت «تختخ» لحظات ثم مضى يقول: وخشي أن تكون «لوزة» قد عرفَت «عبود» وقد تنكشف الحقيقة. وذات يومٍ حضَرتْ رسالة من والدة «سليمان» تقول فيها إن زائرًا أجنبيًّا سيزورهم وتطلُب الترحيب به ... وطبعًا علم «ميزار» بهذا الخطاب، وكانت فرصته ... ادَّعى أن السيارة بها إصلاحاتٌ ولا بد أن يذهب إلى الفيوم، ومن هناك اتصل باسم الضيف وقال إنه قادم للزيارة ... وهكذا دخل القصر ببساطة متنكرًا وطلب مقابلة الأستاذ «عفيفي» على انفراد، حيث استطاع تكميم الرجل المشلول، وأخذ مفاتيح الخزينة منه وفتحَها واستولى على الجوهرة، ثم نزل من النافذة، وذهب فأزال التنكُّر في شكل الضيف، ثم ذهب للقضاء على عم «عبود»، ولكنه وجدنا قريبين من الساقية فأطلق النار لإرهابنا ... ولا أدري ماذا فعل بـ «عبود»، ولكني كنتُ متأكدًا من أنه سيعود ليُقدِّم استقالته من العمل بشكلٍ عادي جدًّا لنفي كل شبهة عنه، وقد حضر ليلًا ليأخذ ثعبانه المدرب ليلتحق بالعمل في سيرك أجنبي له إعلانات في الجرائد، ثم يغادر «مصر» حيث يستطيع بيع الجوهرة، ويعيش ثريًّا مدى الحياة.

وتابع «تختخ» الحديث فقال: نسيتُ أن أقول إنه أحضر معه الثعبان عندما حضر إلى القصر كزائرٍ أجنبي، وأطلَقه في القصر لإثارة انتباهنا حول الثعبان ليقوم هو بالسرقة في أثناء الاضطراب الذي سيُصيبنا عندنا نرى الثعبان!

قالت نوسة: ولكن كيف شكَكْتَ فيه يا «تختخ»؟

تختخ: هل تذكُرون الليلة التي رأته فيها «لوزة» أمام غرفة الأستاذ «عفيفي»؟

ردت «لوزة»: نعم!

تختخ: في اليوم التالي قابلنا الأستاذ «عفيفي» وسألتُه لماذا لم يدُق الجرس عندما سمع صوت الأقدام أمام غرفته ... فقال إن الجرس كان مُعطَّلًا وسيطلب من «ميزار» إصلاحه، وقد ذهبتُ إلى حيث يُوجد الجرس فوجدتُ قطعة من الورق بين المطرقة والجرس حتى لا يدُق، وليس في المنزل من يستطيع تعطيل الجرس بهذه الطريقة إلا «ميزار» ما دام هو المسئول عن الكهرباء في المنزل.

وبدت علامات الإعجاب على كل الوجوه، ومضى «تختخ» يقول: ثم ذهابه إلى الفيوم بدون سببٍ واضح؛ فلو أن السيارة بها عطبٌ شديد يستحق الإصلاح حقًّا لما استطاعت السيارة الذهاب إلى الفيوم، ولكنه أراد أن يُثْبت بعده عن مكان الحادث عندما يأتي الضيف ويسرق الجوهرة ... ثم هناك تحذيره لنا من الثعبان ... وخطاب التهديد المرسل إلى «سليمان» ... فليس هناك في القصر من يستطيع الكتابة غيره ... وربما كتبه بيده اليسرى

حتى يبعد الشبهات عنه ... ثم هناك الملابس المزركشة التي رأيتُها في الكوخ، والأحذية ذات الرقبة الطويلة، إنها كلها من مستلزمات العمل في السيرك حيث تعلَّم «ميزار» التنكُّر وترويض الثعابين وبعض الكلمات الإنجليزية.

محب: إنك مدهشٌ حقًّا يا «تختخ»!

تختخ: قبل كل هذا أريد أن أقول شيئًا ... لقد اختار «عبود» ليُلقي الشبهة عليه ... وهذا هو الخطأ الأول ... فكيف يمكن تصوُّر رجلٍ عجوز يخون صديقه في هذا العمر؟ إن الأستاذ «عفيفي» وعم «عبود» صديقان قبل أن يكونا سيدًا وعاملًا ... إنها صداقة عمر.

والتفَت الشاويش «أمين» إلى «ميزار» قائلًا: هل قتلتَ «عبود»؟

وردَّ «ميزار» في ذلَّة: لا ... لقد كنتُ سأنقلُه إلى مكانٍ آخر.

أمين: والجوهرة؟

ميزار: معي.

وأبرز «ميزار» الجوهرة، وتعلَّقتْ أبصار الأصدقاء بها، وقد انعكس بريق الأنوار عليها فصنعَت دائرةً واسعة من آلاف الأضواء، وبينما كان الشاويش «أمين» يقتاد «ميزار»، قال «تختخ» وهو يتمطَّى: والآن أيها الأصدقاء ... دعونا ننام ثم نستأنف إجازتنا بدون ثعابين ولا ألغاز.


هنـــداوي